حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثاني . شهر رمضان ١٤٣٣هـ / آب . ٢٠١٢م

٢

مرقد الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام سنة ١٩٣٥م

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الكوفة
في دائرة المعارف الإسلامية الشيعية

السيد حسن الأمين

بيروت

-١-

تقع مدينة الكوفة على شاطئ الفرات مباشرة، وتبعد عن مركز النجف الأشرف نحو ١٠كلم، وإلى الجنوب الغربي من مدينة بغداد حوالي ١٦١كلم. وهي ثاني مدينة إسلامية شيدت في العراق بعد البصرة وتعتبر إحدى أهم مدن العالم الإسلامي، أسست العام ١٧هـ (٦٣٨م)، ثم تحولت إلى مدينة مزدهرة في فترات زمنية قصيرة، وأصبحت منارا علمياً وأدبياً، ومركزاً فكرياً وسياسياً مهماً، ولاسيما بعد اتخاذها عاصمة للخلافة الإسلامية من قبل الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) العام ٣٦هـ (٦٥٧م)، وبلغت شهرتها الآفاق، وصارت ملتقى طرق عسكرية، وسوقاً تجارياً كبيراً لعرب الجزيرة.

وتذكر المصادر التاريخية أن الكوفة خُططت منذ البداية تخطيطاً هندسياً أشبه بمخطط مدينة البصرة، وأقيمت مبانيها من خصاص القصب. ولكن بعد احتراق أبنيتها القصبية، شيّدت من اللبن ثم من الآجر والجص، وكان أول مبنى شيّد في الكوفة من الآجر والجص هو مسجدها الجامع ودار إمارتها التي كانت ملاصقة للمسجد في بداية الأمر.

وجاء في «معجم البلدان» لياقوت الحموي عن تسميتها، الآتي: الكُوفَةُ بالضم: المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق، ويسمّيها قوم خدّ العذراء، قال أبو بكر محمد بن القاسم: سُمّيت الكوفة لاستدارتها أخذاً من قول العرب: رأيت كُوفاناً وكَوْفانا، بضم الكاف وفتحها، للرملة المستديرة، وقيل: سُميت الكوفة كوفة لاجتماع الناس بها من قولهم: قد تكوف الرمل، وقيل سُميت كوفة أيضاً لأنها قطعة من البلاد، من قول العرب: قد أعطيت فلاناً كيفة أي قطعة، وقال قُطرُب: يُقال القوم في كوفان أي في أمر يجمعهم، قال أبو القاسم: قد ذهبت جماعة إلى أنها سُميت كوفة بمضوعها من الأرض وذلك أن كل رملة تخالطها حصباء تسمى كوفة، وقال آخرون: سُميت كوفة لأن جبل ساتيدما يحيط بها كالكفاف عليها، وقال ابن الكلبي: سُميت بجبل صغير في وسطها كان يُقال لهُ كوفان، وقد سمّاها عَبْدة بن الطيب كوفة الجندة فقال:

إن التي وضعت بيتاً مهاجرةً
بكوفة الجند غالت ودّها غولُ

وفي العهد البويهي ازدهرت مدينة الكوفة وأصبحت مركزاً سياسياً وثقافياً بعد أن فقدت جزءاً من بريقها عند تأسيس مدينة بغداد.

وتذكر المصادر التاريخية أنه كان في الكوفة آنذاك أكثر من ثلاثين مسجداً. ولاتزال آثار مسجدها الجامع ودار إمارتها قائمة إلى يومنا هذا. أمّا دورها القديمة وبقية مرافقها العامة فغطتها أبنية المدينة الحديثة.

ومن المعالم العمرانية البارزة الأخرى في الكوفة مسجد السهلة الذي يعتبر ثاني أقدم المساجد الموجودة في المدينة بعد مسجد الكوفة، إذ تمّ تشييده في زمن الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وكذلك مسجد صعصعة بن صوحان، ومسجد الحمراء.

وأنجبت الكوفة العديد من عباقرة العلم واللغة والأدب والشعر أبرزهم: جابر بن حيان، والفيلسوف الكندي، وأبو الطيب المتنبي، وأبو الأسود الدؤلي، والكُميت بن زيد الأسدي، والكسائي، والأصمعي وغيرهم.

-٢-

مصرت الكوفة سنة ١٧هـ(٦٣٨م) مصرها سعد بن أبي وقاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب في الجانب الغربي من الفرات على بضعة أميال من الجهة الشمالية الشرقية من مدينة الحيرة[1] في السهل المحصور ما بين الفرات شرقاً والبادية

(*) ج ٢٠ ص٤٤-٦٩.

(١) يذكر الإصطخري في المسالك والممالك: أن «الحيرة... على طرف البادية مما يلي الغرب ويحيط بها مما يلي المشرق النخيل والأنهار والزروع... بينها وبين الكوفة نحو فرسخ.».

المطلة على مشارف الشام وعمان غرباً.

وكان السبب في تمصيرها أن تكون قاعدة عسكرية للقسم الأوسط للمسلمين بدل المدائن[1].

أمّا تخطيطها وبناؤها فكان على غرار البصرة التي خطت قبلها بعامين أو ثلاثة، وكان المسجد الجامع ودار الإمارة أولى ابنيتها، وما أن حطت القبائل رحالها في المصر الجديد وبدأ العمران، حتى توافد عليها الناس من كل صوب، ثم نمت الكوفة بعد ذلك وتحضرت وازدهر فيها العمران حتى صارت قبلة أنظار العرب وزعمائهم.

وليس من السهل تحديد الرقعة التي شغلتها الكوفة عن إنشائها وذلك لاندثار كثير من معالمها، فقد بنيت الكوفة كما هو معروف باللبن والآجر، وكلاهما مما يسهمل هدمه وقلعه، ومن ثم نقله إلى أماكن سكنية أخرى، ومن الملاحظ جيداً أن كثيراً من أبنية الكوفة الحديثة والنجف وأبي صخير قد بنيت بآجر أغلبه قد أخذ من أبنية الكوفة القديمة، الأمر الذي لم يبق على آثار بارزة يمكن الاهتداء إليها في تحديد المسافة أو الحدود التي ابتنيت عليها المدينة على الوجه الدقيق، يضاف إلى هذا أن المسح الأثري للكوفة لم يباشر به إلاّ في نطاق محدود، كما أننا لم نعثر فيا لكتب على أرقام تشير إلى المساحة التي شغلتها في بادئ أمرها، فاليعقوبي مثلاً يذكر أن البصرة قد أنشئت على فرسخين في فرسخ[2] ويمكننا من باب التخمين والترجيح أن نقول: إن الكوفة قد أقيمت في رقعة صغيرة من الفرات لايتجاوز قطرها الكيلومترين، فالمسجد الجامع ودار الإمارة لايتجاوز بعدهما حالياً عن النهر إلاّ نحو كيلومتر وربع تقريباً.

أمّا في العصر الأموي فقد بلغت الكوفة من المساحة كما قدر الفقيه الشعبي «ستة عشر ميلاً وثلثي الميل» وكان بها خمسون ألف دار للعرب من ربيعة ومضر وأربعة وعشرون ألف دار لسائر العرب وستة آلاف دار للمسلمين[3].

ومن الملاحظ أن الكوفة لم تبق على حالها بل توسعت أكثر لازدياد سكانها وتوسع عمرانها وكان توسعها كما تدل بعض الأكام المنتشرة في موضعها على امتداد الفرات من جهة الشرق وإلى قرب الحيرة والنجف من جهة الغرب.

وأغلب الظن أن أقصى ما بلغت الكوفة من المساحة في القرون الثلاثة للهجرة حسبما نحدده مؤقتاً هو ١٥كيلومتراً طولاً و٩كم عرضاً أي من نقطة تبدأ من خان المصلى في الشمال إلى حدود قصر أم عريف في الجنوب قرب بحر النجف.

(١) الطبري: حوادث سنة ١٤هـ

(٢) اليعقوبي: البلدان ص٣٢٢.

(٣) ياقوت: معجم البلدان ج٧، ص٢٩٧.

وبلغ عدد سكان الكوفة وقت إنشائها مائة ألف مقاتل[4]، ويقول ياقوت عن عمر بن الخطاب(رض) كتب إلى سعد يأمره بأن يخط مسجد الكوفة بحيث يتسع للمقاتلة فخطه بحيث يسع أربعين ألفاً[5]، وفي إمارة زيادة سنة ٥٠هـ(٦٧٠م)، وسع المجد -وكان التوسيع في داخل المسجد- بحيث يتسع لستين ألفاً أي زاد فيه عشرين ألفاً.

والكوفة لم تكن معروفة قبل أن ينزلها العرب ولم يعرف عن مكانها بأنه كان مستوطناً قديماً يعود إلى عصور ما قبل التاريخ أو بعده وإلى الزمن الذي مصرت فيه، غير أن ثمة رواية فارسية يذكرها المستوفي، تزعم بأن الملك الأسطوري «خوشنك» هو الذي بنى الكوفة، ولكنها تخربت، ثم شادها سعد بن أبي وقاص من جديد، أو كماي قول ابن الفقيه بأن الطوفان قد أصاب مسجدها ومنه خرجت سنفية نوح[6] وكل من الروايتين خرافة لا يدعمها دليل تاريخي أو أثري ولا تتطلبان فيما أرى عناء البحث لتفنيدهما، فالكوفة كما أثبتت التحريات الاستكشافية فيها إسلامية المنشا أنشئت إنشاءً جديداً لتكون «دار هجرة ومنزل جهاد للمسلمين»[7]، فنزلها سعد وخط مسجدها ودار إمارتها وخط فيها الخطط للقبائل، وأقطع فيها القطائع وعلم المناهج ورسم السكك والدروب والأسواق ثم تسابق فيها الناس على البناء، فأسرع إليها النمو، وتحولت في بضع سنين إلى مدينة عامرة مزدحمة السكان تقوم هي والبصرة بدور العاصمة للعراق.

كانت الكوفة أولاً منزل العرب وحدهم وكان غالبيتهم عناصر متحضرة من اليمن وحضرموت مثل قبيلة «كندة» و«بجيلة» يقول ماسينيون إن هذه العناصر كانت سبباً لتحضر العنصر العربي بالكوفة ونشاط الحركة الفكرية فيما بعد[8] ثم نزل الكوفة بعد تمصيرها وبنائها عدد من الموالي، من الفرس، وأخلاط من أبناء المدن المجاورة كالسريان والنبط والنصارى واليهود.

والواقع أن المسجد في حالته الراهنة يوحي بحدوث كثير من التجديدات في مختلف العصور ولكننا مع الأسف لايمكن أن نحدد أزمنة هذه التجديدات أو التطورات التي حدثت في بنائه في العصور المختلفة لعدم وجود ما يدل على تاريخها، وربما تجود الحفائر أو الكشوف الأثرية المستقبلة، بما يمكننا من تحديد أزمنتها أو على الأقل إضافة بعض الحقائق إلى معلوماتنا الحالية.

(٤) الطبري: المجلد الأول ص٢٦٧٩.

(٥) ياقوت: معجم البلدان ج٧، ص٢٧٩.

(٦) ابن الفقيه: البلدان ص١٧٣.

(٧) الطبري: حوادث سنة ١٤هـ.

(٨) ماسينيون: خطط الكوفة ص١٢ فما بعدها.

هذا وقد سبق أن أشرنا إلى أن المؤرخين لم يذكروا شيئاً عن تفصيلات هذا المسجد بحيث يمكن تكوين صورة واضحة عما كان عليه تخطيطه الأصلي وقت البناء ولا يمكن حسب معلوماتنا الحالية أن نتصور بأنه كان يختلف كثيراً عن طراز مسجد الكوفة.

وقد هدى البحث التاريخي والأثري أن هذه المدينة قد بنيت أول الأمر بشيء من البساطة واليسر فبدأت أبنيتها بالقصب، فلما احترف بنيت من اللبن ثم الآجر. فكان أول ما بني من أبنيتها المسجد الجامع ودار الإمارة ولم يبنيا من القصب واللبن ولكنهما بنيا بالآجر كما أثبت البحث الأثري.

وكان طبيعياً بعد التخطيط الأول للمدينة أن يشمل البناء كل هذه الخطط ثم أخذت بعد ذلك تتسع اتساع العمران ونموه.

مدرسة الكوفة

إن العراق من أكثر البلاد العربية ثروة علمية وأدبية والكوفة أهم كنز من كنوز تلك الثروة ومن القديم كانت الكوفة معهداً علمياً مهماً في تاريخ العراق فقد قيل إن عاقولاً كانت قبل الإسلام مدرسة آرامية انتشر فيها الأدب السرياني فالروماني واليوناني وكانت قريبة من الكوفة أو بمكانها، وغير هذا فقد كانت الكوفة أول مدرسة عربية جمعت الأدب والفلسفة والعلم والفن وأنها المركز الثاني للفقه الإسلامي بعد الحجاز وبالأصح أن الكوفة ورثت حضارات وآداب كثيرة لأمم شتى وللدول التي سبقت العرب في تلك البقاع، والوارثون كانت لهم موهبة الإبداع والابتكار في الفكر والتصور وخصوصاً الجماعات الهابطة من جنوب الجزيرة العربية من اليمانيين فقد كانوا أهل حضارة وتمدن وعندما نزل العرب الكوفة كان اليمانيون أكثر من العدنانيين، ومما يزيد في المادة العلمية هناك الفرس هذه بعض الأسباب لتفوق مدرسة الكوفة في تاسيس الثقافة العربية الإسلامية، لقد كان الإبداع في الكوفة شاملاً لكافة أدوار الثقافة من الفلسفة والتصوف والفقه وعلم الأصول فكانت محطة للفقهاء والمشرعين وكان لها مذهب الاجتهاد، ولها المكانة في السياسة وآداب اللغة فمذهب الكوفيين ومقالتهم منوه عنها ومشهورة وقد قيل إن الأدب ميراث الكوفة.

ومما أعان على ثراء مدرسة الكوفة الخط الكوفي حيث اختصت به واختص بها ومن المعلوم أن الخط ولوازم الخط وآثار الخط من تحرير وتقرير وتاليف ومراسلة هو الأساس للثقافة، وقد كان لآداب اللغة العربية أكبر مظهر في مدرسة الكوفة فقليل من الإلمام بحياة المتنبي وثقافته يكشف لك مظهر الأدب في الكوفة.

وفي عهد المتنبي كانت الكوفة في الغاية من العمران فقد ذكر بشر بن عبدالوهاب القريشي في عام ٣١٤ أن فيها خمسين ألف دار لربيعة ومضر وأربعة وعشرين ألف دار لغيرهم من العرب وستة آلاف دار لأهل اليمن.

خراب الكوفة

وعاشت الكوفة إلى القرن الثامن للهجرة وهنا ابتدأ الخراب فيها حتى عادت خراباً، وبعد القرن الثالث عشر دب العمران إليها ثانية في بداية القرن الرابع عشر للهجرة وكانت في النصف الأول من هذا القرن أعمر تجارياً منها اليوم وذلك لأنها كانت أهم ميناء للفرات الأوسط تنحدر منها السفن التجارية إلى البصرة حاملة للصادرات وتصعد إليها من البصرة حاملة الاستيراد ولكن بعد أن امتد القطار فقدت الكوفة أهميتها التجارية أمّا من جهة العمران فقد كانت النجف محطة علمية يهبط إليها علية القوم من أبناء فارس وكان المترفون منهم يتنزهون على شواطئ الفرات في الكوفة الأمر الذي استلزم أن تهيأ لهم أسباب الراحة في قصور ولوازم القصور فتقدمت الكوفة في العمران ولكن تحولت الهجرة العلمية فهجرت الكوفة وعادت موحشة ولكن في النصف الأخير من هذا القرن أخذ العمران يزحف إليها صاعداً من النجف وأوشك أن يتصل ما بين المدينتين على العكس من وضعية العمران الأول التي كانت منحدرة من الكوفة إلى الثوية وسوف تصبح الكوفة تابعة للنجف بعد أن كانت النجف تابعة للكوفة أمّا الآثار التي نشاهدها اليوم من الكوفة القديمة فتشعر باتساع مساحتها، نعرف ذلك من الأحجار والصخور وآثار المباني المتراكمة في الغرب والشمال للضفة الأولى من فرات الكوفة وفي الشرق لجانبي النهر ويوجد على حافتي الطريق بين جامعي السهلة والكوفة حفر مبثوثة تمتد إلى ما وراء مسجد الكوفة المارة (مقالع) وهي قسم من عمارة الكوفة القديمة وبيوتها كان الناس ينبشونها ويقلعون حجارتها ويجلبونها إلى النجف لتكون مادة للتعمير والإنشاء.

لم تنهض الكوفة الأولى على النهر تماماً بل كان يبعد عنها قليلاً إذ كان يجري بموقع الجسر الذي كان في الجانب الشرقي بين القصر والكناسة وكان إلى الموقع المسمى (العباسيات) أقرب، وقد كان ذلك النهر فرعاً من عمود الفرات.

الحياة العلمية في الكوفة

ونترك الكلام هنا للشيخ عبدالجبار الرفاعي:

تعود نشأة الحياة العلمية في الكوفة إلى الأيام الأولى من تمصيرها حيث جاءها «عمار بن ياسر أميراً، وعبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً».

وتفرغ عبدالله بن مسعود لتعليم أهل الكوفة القرآن الكريم، وبيان أصول تلاوته، وتفسيره، فتخرج عليه بعض القرّاء

المعروفين، مثل زِرّ بن حُبَيْش الشكري العُطاردي الذي «قرأ على عبدالله بن مسعود القرآن كله» في كل يوم آية واحدة، لايزيده عليها شيئاً، فإذا كانت آية قصيرة استقلها زرّ بن عبدالله، فيقول عبدالله: خُذها، فوالذي نفسي بيده، لهي خير من الدنيا وما فيها». ومارس صحابة آخرون التعليم في الكوفة بعد تاسيسها مباشرة غير ابن مسعود، فقد قال نصر بن عاصم الليثي: «أتيت اليشكري في رهط من بني ليث، فقال: قدمت الكوفة، فدخلت المسجد، فإذا فيه حلقة كأنما قُطعت رؤوسهم، يستمعون إلى حديث رجل، فقمت عليهم، فقلت: مَنْ هذا؟ فقيل: حذيفة بن اليمان صاحب رسول الله، فدنوت منه، وسمعت بعض حديثه، عن رسول الله(ﷺ)». وقال عمران بن سريع: «كنا مع حذيفة رضي الله عنه في مسجد الكوفة، فانشأ يُحدّث عن الأحزاب».

إن هذه الإشارات تدل على أن الدرس القرآني والحديث انطلق في الكوفة منذ الأيام الأولى لتمصيرها وهبوط الصحابة فيها، بيد أن الحياة العلمية افتتحت عهداً جديداً حالما وفد أمير المؤمنين(عليه السلام) إليها سنة ٣٦هـ وأضحت السنوت الأربع التي مكث فيها بالكوفة منذ وفوده إليها حتى استشهاده سنة ٤٠هـ تمثل العصر التأسيسي لغير واحد من العلوم الإسلامية، ذلك أن الإمام علياً(عليه السلام) عنى عناية فائقة بغرس وتنمية الحياة العلمية، ولم تمنعه الحروب والاضطرابات التي استغرقت منه زمناً وجهداً كبيراً، من مهمته العلمية في هذه الحاضرة الجديدة. فكان نشر العلوم الإسلامية شاغله الأعظم، وكانت تربية وإعداد نخبة من حملة هذه العلوم وظيفته التي ما انفك مواظباً عليها في السلم والحرب، وفي الحضر والسفر، وفي الكوفة وخارجها. ففي كل زمان كان معلماً، وفي كل مكان حل فيه كان معلماً أيضاً، وحرص تلامذته على الإفادة منه وحفظ ما يلقيه إليهم أينما كانوا.

واستاثر القرآن من أمير المؤمنين(عليه السلام) باهتمام بالغ، وتخرج عليه في علوم القرآن والقراءات والتفسير رهط من أهل القرآن الذين انتهت إليهم أشهر القراءات والآراء في تفسير القرآن، فإذا «رجعت إلى القراءات والآراء في تفسير القرآن، فإذا «رجعت إلى القراءات وجدت أئمة القراء كلهم يرجعون إليه، كأبي عمرو بن العلاء، وعاصم بن أبي النجود، وغيرهما، لأنهم يرجعون إلى أبي عبدالرحمن السُلَميّ القارئ. وأبو عبدالرحمن كان تلميذه، وعنه أخذ القرآن، فقد صار هذا الفن من الفنون التي تنتهي إليه»، وأبو عبدالرحمن السُلَميّ المتوفى سنة ٧٤هـ هو صاحب الرواية المتداولة للقراءة التي يرويها عنه عاصم بن أبي النَّجود الأسدي الكوفي المتوفى سنة ١٢٧هـ ويرويها عن عاصم تلميذه حفص بن سليمان الأسدي الغاضري الكوفي المتوفى سنة ١٨٠هـ وكان السُلَميّ قد مكث أربعين سنة يقرأ القرآن في جامع الكوفة، وتخرج عليه خلق كثير من القرّاء، من أشهرهم عاصم الذي واصل مهمة أستاذه فعكف يُعلّم القرآن في المسجد، وتخرج عليه عدد من القرّاء، كان حفص أبرزهم، وأصبحت لحفص مكانة مرموقة بين القرّاء، جعلت القرّاء يلتزمون «بقراءته في المصحف المتعارف بين المسلمين، وعليها كان مدار القراءة العامة».

وكان حفص يؤكد وراثة هذه القراءة من أمير المؤمنين، إذ يروي عن أستاذه عاصم ذلك، فيقول: «قال لي عاصم: ما كان من القراءة التي أقرأتك بها، فهي القراءة التي قرأتها على أبي عبدالرحمن السُلَميّ، عن علي(عليه السلام)».

ومن أمير المؤمنين استقى أهل القرآن من الصحابة علم التفسير، فقد عُرف عبدالله بن عباس كأشهر مفسّر عهدئذ، والكل يعلم أن ابن عباس (تلميذه وخريجه)، إذ كان ملازماً لهُ، ومنقطعاً إليه، وكان يشهد بتفوقه العلمي على سواه، فعندما «قيل له: أين علمك من علم ابن عمك؟ قال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط».

إن فترة إقامة أمير المؤمنين(عليه السلام) بالكوفة تميزت بانعطاف ملحوظ في تعلم قراءة القرآن، والتعرف على محكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، واستجلاء معانيه، ووعي مضامينه.

ومع أنّ المركز التعليمي الذي كان يعلّم فيه علي بن أبي طالب(عليه السلام) تلامذته هو المسجد الجامع بالكوفة، حيث انعقدت في أفيائه حلقات القرآن، ومن على منبره ألقى علي(عليه السلام) الكثير من خطبه الطافحة بالمعاني الربّانية العميقة، والتي اشتمل على بعضها كتاب «نهج البلاغة»، بَيْد أنّ الإمام علياً(عليه السلام) لم يقتصر على المسجد في بثّ علومه. وتشير بعض الوقائع إلى أنّ بعض تلامذة الإمام علي(عليه السلام) كان يحظى بإعداد وتأهيل خاصّ منه، كما يحكي كميل بن زياد النخعي نموذجاً لذلك بقوله: «كنت مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) في مسجد الكوفة، وقد صلينا العشاء الآخرة، فأخذ بيدي، حتى خرجنا من المسجد، فمشى حتى خرج إلى ظهر الكوفة، لايكلمني بكلمة، فلما أصحر، تنفس، ثم قال: يا كميل إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، احفظ عني ما أقول:...) وقد تربّى في فضاء مدرسة أمير المؤمنين نخبة من التلاميذ عملوا على إرساء قواعد مدرسة أهل البيت(عليهم السلام) بالكوفة، مضافاً إلى دورهم المتميز في غرس وتنمية بذرة غير واحد من العلوم عند المسلمين، فازدهرت على أيديهم الحركة الفكرية في الكوفة، وانتقلت بواسطتهم تلك العلوم إلى أمصار أخرى غيرها، وسجّل تاريخ الحياة العلمية في الإسلام مساهمات رائدة لأسماء لامعة منهم، ويعتبر علم

النحو أحد أبرز العلوم التي غرس بذرتها أمير المؤمنين(عليه السلام)، وحرص على تنميتها تلميذه أبو الأسود الدؤلي، الذي تلقّى هذا العلم منه مباشرة، ذكر القفطي أنّ «المشهور من أهل الرواية، على أنّ أوّل من وضع النحو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب. قال أبو الأسود: دخلت على أمير المؤمنين، فرأيته مطرقاً مفكّراً، قلت: فيمَ تفكّر يا أمير المؤمنين؟ قال: سمعت ببلدكم لحناً، فاردت أن أضع كتاباً في أصول العربية، ثمّ أتيته بعد أيام، فألقى إليّ صحيفة، فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، الكلام: اسم، وفعل، وحرف، فالاسم: ما أنبأ عن المسمّى، والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثمّ قال: تتّبعه، وزد فيه ما وقع لك، واعلم أنّ الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنّما العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر»[1].

وكتب ياقوت الحموي أنّه: «كان(عليه السلام) أوّل من وضع النحو، وسنّ العربية، وذلك أنّه مرّ برجل يقرأ: «إنّ الله بريءٌ من المشركين ورسوله» بكسر اللام في رسوله، فوضع النحو، وألقاه إلى أبي الأسود الدؤلي»[2] وكتب ابن أبي الحديد يشرح العلوم التي ابتدعها وأنشاها(عليه السلام)، فذكر منها «علم النحو والعربية، وقد علم الناس كافّة أنّه هو الذي ابتدعه وأنشاه، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه وأصوله، من جملتها: الكلام كلّه ثلاثة أشياء: اسم، وفعل، وحرف، ومن جملته تقسيم الكلمة إلى: معرفة، ونكرة، وتقسيم وجوه الإعراب إلى: الرفع، والنصب، والجرّ، والجزم، وهذا يكاد يُلحق بالمعجزات، لأنّ القوّة البشرية لاتفي بهذا العصر، ولا تنهض بهذا الاستنباط». وكتب أبو حيّان التوحيدي: «إنّ عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) سمع قارئاً يقرأ على غير وجه الصواب، فساءه ذلك، فتقدّم إلى أبي الأسود الدؤلي حتى وضع للناس أصلاً، ومثالاً، وقياساً، بعد أن فتق له حاشيته، ومهّد له مهاده، وضرب له قواعده»[3].

وتعود نشأة الحياة العقلية عند المسلمين إلى ما غرسه أمير المؤمنين من بذور، صارت فيما بعد أصولاً للفكر الإسلامي ولسائر تجلّيات المنحى العقلي في الإسلام. فإن ما اشتملت عليه طائفة من خطبه وتعاليمه مثّلت رافداً أساسياً استقى منه المتكلمون مقولاتهم وآراءَهم، يقول السيّد المرتضى: «اعلم أنّ أصول التوحيد والعدل، ماخوذة من كلام أمير المؤمنين صلوات الله عليه وخطبه، فإنّها تتضمن من ذلك ما لا زيادة عليه، ولا غاية وراءه، ومَن تامّل المأثور في ذلك من كلامه، عَلِمَ أنّ جميع ما أسهب المتكلّمون من بعده في تصنيفه وجمعه، إنّما هو تفصيل لتلك الجمل، وشرح لتلك الأصول، وروي عن الأئمّة من أبنائه(عليهم السلام) من ذلك ما لا يُحاط به كثرة»[4] ويشير ابن الحديد المعتزلي إلى اقتباس سائر الفرق الكلامية المعروفة صنعة الكلام من خطب أمير المؤمنين وكلامه، حيث يقول: إنّ شرف العلوم هو العلم الإلهي، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم، ومعلومه أشرف الموجودات، فكان هو أشرف العلوم. ومن كلامه(عليه السلام): اقتُبِس، وعنه نُقل، وإليه انتهى، ومنه ابتدأ، فإنّ المعتزلة... تلامذته وأصحابه، لأنّ كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذه(عليه السلام). وأمّا الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن عليّ بن [إسماعيل بن] أبي بشر الأشعري، وهو تلميذ أبي علي الجبّائي، وأبو علي أحد مشايخ المعتزلة، فالأشعرية ينتهون بآخَرَة إلى أستاذ المعتزلة ومعلمهم، وهو علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وأمّا الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر».

على أنّ مدرسة أمير المؤمنين في الكوفة تجذّرت بعد استشهاده بمرور الزمن، وتجلّت بابهى صورة لها بعدما يناهز القرن في العدد الكبير من التلامذة الذين ازدلفوا من أصقاع شتّى للتتلمذ على حفيده جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(عليهم السلام)، وامتدّت هذه المدرسة جغرافياً من خلال انتشار مريديها وتلامذتها في البصرة، وقم، والريّ، وبغداد. فبسطت نفوذها، وشعّت أفكارها، لتهيمن على أبرز الحواضر العلمية الإسلامية وقتئذٍ.

مدرسة الكوفة بعد استشهاد أمير المؤمنين(عليه السلام):

اتّسمت الحقبة التي عاشتها الكوفة بعد استشهاد أمير المؤمنين، بسلسلة من الاضطرابات الداخلية، والثورات، والحروب الأهلية، واكبتها حملة تصفيات واسعة شملت طليعة عالمة مجاهدة من تلامذة أمير المؤمنين وخاصة أصحابه، فيما اضطر آخرون منهم للهجرة من الكوفة واللجوء إلى بلدان أخرى أبعد عن عيون السلطة الأموية، وأكثر أمناً من الكوفة. ونشا عن تدهور الأمن انكماش وضمور أصاب الحياة العلمية في مدرستها، استمر عشرات السنين، وإن لم يؤدِ ذلك إلى اندثار هذه المدرسة، وتعطل الحياة فيها بنحو تام؛ لأنّ هناك إشارات تاريخية تكشف عن حضور علمي سجلته حلقات تلامذة أهل البيت(عليهم السلام) في النصف الثاني من القرن الأوّل الهجري عقيب رحيل أمير المؤمنين(عليه السلام)، فبالرغم من حالة الإرهاب التي اتشحت بها مدينة الكوفة، وما تعرّض له أتباع أهل البيت(عليهم السلام) فيها من خوف واضطهاد، لم تحل هذه

(١) أنباء الرواة. ٤، ص٤.

(٢) معجم الأدباء: ج١٤، ص٤٢.

(٣) أبو حيان التوحيدي، البصائر والزخائر: ج١، ص١٧٥ (بغداد ١٩٥٤)..

(٤) الأمالي: ج١، ص١٤٨.

الظروف بينهم وبين السعي لتحصيل العلم ونشره، وكان من أبرز الأعلام الذي تصدّوا للتدريس بالكوفة في هذه الحقبة سعيد بن جبير تلميذ الإمام زين العابدين(عليه السلام)، وكان بعض التلامذة «يختلف إلى سعيد بن جبير معه التفسير في كتاب، ومعه الدواة...»[1]، وقد سعى سعيد سعياً حثيثاً لبثّ ما عنده من علوم، فكان يقول: «وددت أنّ الناس أخذوا ما عندي، فإنّه ممّا يهمّني». وسطع نجم سعيد بالكوفة، واشتهر بين أهل العلم، كأحد المفسّرين والمحدّثين والفقهاء البارزين يومئذ، حتى «كان ابن عباس، بعدما عمي، إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه، قال: تسألوني وفيكم ابن أمّ دهماء؟»، يعني سعيد بن جبير.

مدرسة الكوفة في عصر الإمام الصادق(عليه السلام):

أوشك ليل الكوفة على فجره بعد اضمحلال سلطان الأمويين في الشام، وتعاظمت قمة الثوار العباسيين، وهيمنتهم على رقعة واسعة من القسم الشرقي للدولة الإسلامية عهدئذ. وبموازاة ذلك أعلن قطاع كبير من المسلمين في غير مصر من الأمصار. وخاصة بالكوفة عن تشيّعهم وتضامنهم مع دعوة «الرضا من آل محمّد(صلى الله عليه وآله)» الشعار الذي انتشر بين الثوار المنقادين للدعوة العباسية. وعلى هذا صارت الحقبة الفاصلة بين انحطاط وضعف الدولة الأموية ونشأة ونمو سلطان الدولة العباسية فيما بعد، حقبة حافلة بالنشاط العلمي، من ازدياد ملحوظ في عدد طلاب العلم، وتنامي حلقات التدريس تبعاً لذلك، وازدهار حركة تدوين العلوم والتأليف، والإبداع في مختلف حقول المعرفة.

وليس بوسع الباحث أن يسجل جميع تفاصيل الحركة العلمية في الكوفة، وما حفلت به حلقات الدرس في هذا العصر؛ لأنّ التاريخ لم يحتفظ لنا بالمصنفات العديدة المدونة في تلك الحقبة، والتي اهتمت بتاريخ الحياة العلمية فيها. إلاّ أنّ ذلك لايمنع من رسم ملامح وخطوط عامة لصورة الحياة العلمية بالكوفة، وما حفلت به حلقات الدرس في هذا العصر؛ لأنّ التاريخ لم يحتفظ لنا بالمصنفات العديدة المدونة في تلك الحقبة، والتي اهتمت بتاريخ الحياة العلمية فيها. إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من رسم ملامح وخطوط عامة لصورة الحياة العلمية بالكوفة، عبر التقاط بعض الإشارات من كتب الرجال، والتراجم، والتاريخ التي تحدّثت عرضاً عن ذلك عندما ذكرت أعلام الكوفة. فمثلاً تشير المصادر التاريخية إلى هبوط (١٤٨) صحابياً بالكوفة، واتخاذهم إيّاها وطناً دائمياً لهم منذ تمصيرها، كذلك أ وردت تلك المصادر أسماء ما يربو على عشرين عائلة من العوائل المعروفة بولائها لأهل البيت(عليهم السلام) بالكوفة من الصحابة وغيرهم، اشتهر أكثر المنتسبين إليها بطلب العلم كآل أبي الجعد رافع الغطفاني الأشجعي مولاهم، وآل أبي الجهم القابوسي اللخمي، وآل أبي رافع، وآل أبي سارة، وآل أبي شعبة الحلبيين، وآل أبي صفية، واسم أبي صفية دينار، وهو أبو ثابت المعروف بابي حمزة الثمالي، وآل أعين، وهم أكبر بيت في الكوفة من الشيعة، وأعظمهم شاناً، وأطولهم مدة وزماناً، وآل حيان التغلبي مولى بني تغلب، وآل نعيم الأزدي الغامدي، وبني الحر الجعفي، وبني دراج، وبني عمار البجلي الدهني مولاهم،.... وغيرهم.

وما كان من الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) إلاّ أن يرحل من موطنه المدينة إلى الكوفة مغتنماً مناخ الحرية الذي تحقق في الحقبة المارة الذكر، «ولقد بقي(عليه السلام) في الكوفة سنتين، أيام أبي العباس السفاح، فازدلفت إليه الشيعة من كل فج زرافات ووحداناً، تسقى من العلم وتروي من منهله العذب الروي، وتروي عنه الأحاديث في مختلف العلوم، وكان منزله(عليه السلام) في بني عبد القيس». والتفّ حوله عدد غفير من أهل العلم، حتى أضحى لقاؤه من قِبل مريديه ليس سهلاً في كلّ آن، يقول محمد بن معروف الهلالي: «مضيت إلى الحيرة إلى جعفر بن محمد(عليه السلام)، فما كان لي فيه حيلة، من كثرة الناس، فلما كان اليوم الرابع رآني، فادناني،...». وبالرغم من أن المدة التي أمضاها جعفر الصادق(عليه السلام) بالكوفة كانت محدودة، إلاّ أنّه تفرّغ فيها للتعليم والتربية، فصارت مدرسة الكوفة في هاتين السنتين من أعظم الجامعات العلمية في العالم وقتئذ، بحيث وصل عدد الدارسين فيها إلى عدّة آلاف، فقد ذكر الحافظ بن عقدة في كتابه «أسماء الرجال الذين رووا عن الصادق(عليه السلام) أربعة آلاف رجل، وأخرج فيه لكل رجل الحديث الذي رواه». وربما كان بعض هؤلاء الرجال الذي ترجم لهم ابن عقدة ممّن لم يرد الكوفة، وإنّما تتلمذ على الإمام الصادق(عليه السلام) بالمدينة، بَيْد أنّ إشارة أخرى جاءت في «رجال النجاشي» تدلّل على اتّساع نطاق مدرسته(عليه السلام) بالكوفة، وانضواء جميع أهل العلم تحت لوائه، إذ يقول أحمد بن محمد بن عيسى: «خرجت إلى الكوفة في طلب الحديث، فلقيت بها الحسن بن علي الوشاء، فسألته أن يُخرج لي كتاب العلاء بن رزين، فقال ليك يا أحمد، رحمك الله، وما عجلتك، اذهب فاكتبهما، واسمع من بعد، فقلت: لا آمن الحدثان، فقال: لو علمت أنّ هذا الحديث يكون له هذا الطلب، لاستكثرت منه، فإنّي أدركتْ في هذا المسجد تسعمائة شيخ كلّ يقول: حدّثني جعفر بن محمد»[2]. ومهما يكن عدد تلامذته(عليه السلام)، فإنّ ما يمكن أن نجزم به هو وفرة عدد تلامذته(عليه السلام) بالكوفة، وتفوّق مدرسة الكوفة يومئذٍ على أية

(١) الطبقات الكبرى: ج٢، ص٢٦٦.

(٢) رجال النجاشي: ص٣٩-٤٠.

حاضرة علمية معاصرة لها، فإنّها مضافاً إلى كثرة الدارسين فيها، ظهرت فيها حلقات لعدّة علوم، فبينما انضوى تحت أفيائها طائفة من المحدّثين، واستأثر الحديث الشريف باهتمام الأعمّ الأغلب من تلامذتها، برع آخرون في التفسير والقراءات، والفقه، والكلام، وعلوم اللغة العربية وآدابها، والفقه، والكلام، وعلوم اللغة العربية وآدابها، وعلوم أخرى. فقد عُرِف جماعة من المفسّرين من تلامذة الإمام الصادق(عليه السلام) بالكوفة، ومن أشهرهم ثابت بن أبي صفية أبو حمزة الثمالي صاحب كتاب «تفسير القرآن»، وكذلك عُرِف منهم قرّاء لامعون، مثل حمران بن أعين الشيباني الذي كان «أحد حملة القرآن، ومن يُعدّ ويُذكر اسمه في كتاب القرّاء».

وتخرج في مدرسة الإمام الصادق(عليه السلام) بالكوفة شيخ القرّاء، وأحد القرّاء السبعة الأئمة، حمزة بن حبيب بن عمارة أبو عمارة التَّيْميُّ، الذي أخذ القراءة عن الإمام جعفر بن محمد الصادق، وحمران بن أعين.

كما أنّ الفقهاء المعروفين في هذه الفترة تخرجوا في هذه المدرسة، فقد كان أبرز الفقهاء المتقدمين في مدرسة أهل البيت(عليهم السلام) من تلامذة الإمام الصادق(عليه السلام) بالكوفة، طبقاً لما نصّ عليه الكشي بقوله: «أفقه الأوّلين ستة: زرارة، ومعروف بن خربوذ، وبريد، وأبو بصير الأسدي، والفضيل بن يسار، ومحمد بن مسلم الطائفي، قالوا: وأفقه الستّة زرارة...».

أمّا علم الكلام، فقد اشتهر مجموعة من تلامذة الإمام الصادق بمحاججاتهم، فمثلاً كان زرارة بن أعين «خَصِماً، جَدِلاً، لايقوم أحد لحجّته... والمتكلّمون من الشيعة تلاميذه».

وكان هشام بن الحكم «حاذقاً بصناعة الكلام، حاضر الجواب». خاض مناظرات عديدة مع متكلمي المعتزلة وغيرهم، ولاحقهم في حلقات درسهم فنقض آراءهم بحضور تلامذتهم، فكان يذهب إلى البصرة المركز الأهمّ لمدرسة المعتزلة آنذاك، لأجل مناظرة علماء هذه المدرسة، وهكذا كان يفعل مع علمائهم في بغداد، ولا يترك أية فرصة دون أن يغتنمها، وقد احتفظت المراجع القديمة ببعض مناظراته.

وبرع في الكلام جماعة آخرون من تلامذة الإمام الصادق(عليه السلام)، من أبرزهم أبو جعفر الأحول محمد بن علي بن النعمان بن طريفة البجلي، المعروف عند الشيعة بمؤمن الطاق وعند غيرهم بشيطان الطاق، الذي كانت له مع أبي حنيفة والمرجئة مجالس تخللتها مناظرات كلامية طويلة في مسجد الكوفة، دوّنها في كتابه «مجالس مع أبي حنيفة والمرجئة». وهشام بن سالم، وحمران بن أعين، وقيس الماصر.

وأنجبت مدرسة الإمام الصادق(عليه السلام) بالكوفة أعلاماً آخرين، سجّلَ لهم تاريخ العلم مساهمات رائدة في علوم العربية وغيرها، ومن هؤلاء محمد بن الحسن بن أبي سارة المعروف بابي جعفر الرواسي، الذي كان هو وابن عمه مُعاذ بن مسلم بن أبي سارة من أساتذة النحو اللامعين بالكوفة، واضطلعا بدور مهم بتاسيس مدرسة الكوفة النحوية، فقد تخرّج عليها الكسائي والفراء قال النحاس وعلي ومعاذ ومحمد: فَقيهَ الكسائي عِلم العرب، والكسائي والفراء يحكون في كتبهم كثيراً: «قال أبو جعفر الرواسي، ومحمد بن الحسن». وقال أحمد بن يحيى ثعلب: «كان الرواسي أستاذ علي بن حمزة الكسائي، والفرّاء.. وكلّ ما في كتاب سيبويه «وقال الكوفي كذا» فإنّما يعني الرواسي.. وكتاب الروّاسي يقال له «الفصيل»، وقال ابن النديم: «إنّ الرواسي: أوّل من وضع من الكوفيين كتاباً في النجوم» وكان الرواسي من أصحاب جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام).

ومن العلوم الأخرى التي كان قصب السبق فيها لمدرسة الكوفة علم الكيمياء، فقد ذكر حاجي خليفة أنّ «أوّل من اشتهر هذا العلم عنه جابر بن حيّان» وعندما يذكر جابر يصفه بقوله: «جابر تلميذ جعفر الصادق». والمعروف «أنّ جابراً كان أكثر مقامه بالكوفة». وطارت شهرته في الآفاق، وأثنى المؤرخون على نبوغه في العلوم الطبيعية، فقال عنه القفطي إنّه: «كان متقدماً في العلوم الطبيعية، بارعاً منها في صناعة الكيمياء، وله فيها تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة». ووصف منزلته العلمية «برتلو» بقوله «ينزل في تاريخ الكيمياء منزلة أرسطو في تاريخ المنطق».

في ضوء ما سبق يتبين لنا أنّ مدرسة الإمام جعفر الصادق بالكوفة، اتسعت لتستوعب آلاف التلاميذ، وتنوّعت في تخصصاتها وفروعها المعرفية، فشملت العلوم الطبيعية، وعلوم اللغة العربية، مضافاً إلى العلوم الشرعية، وشاع في فضائها منطق الحوار والحرية والتسامح، بحيث «كانت مدرسة شبه سقراطية، وقد ساهم عدد من تلامذته مساهمة عظمىٰ في تقدم الفقه والكلام. وصار اثنان من تلامذته، وهما أبو حنيفة، ومالك بن أنس فيما بعد من أصحاب المذاهب الفقهية».

مدرسة الكوفة بعد الإمام الصادق(عليه السلام)

واصلت مدرسة الكوفة نشاطها بعد عصر الإمام الصادق(عليه السلام) باعتبار الكوفة حاضرة علمية تضمّ عدداً كبيراً من شيوخ العلم، الذين ازدحمت بهم أروقة مسجد الكوفة، واستمرت حلقات الدروس فيه عدة قرون لم تتوقف عن إعداد طلاب العلم وتاهيلهم لنشر علوم الشريعة وغيرها في أمصار أخرى. غير أنّ أهلها ما انفكوا يعيشون حالات تدهور الوضع الأمني في مدينتهم بين حين وآخر؛ لأن الكوفة ظلت وفيّة لمبادئ مدرسة أهل البيت(ع) أبداً حتى خرابها، وأضحت أهم

قاعدة لتعبئة الثورات المناهضة للأمويين، والعباسيين، لسنوات طويلة.

ومثلما كانت الكوفة محطة تنبعث منها الثورات، كذلك صارت ينبوعاً استقت منه المدن الأخرى العلوم، عندما هاجر أهل العلم منها إلى البصرة، ومكة، وقم، وبغداد وغيرها، فمثلاً انتقل المتكلم المعروف هشام بن الحكم إلى بغداد سنة تسع وتسعين ومئة، واضطلع بدور رائد في تأسيس مدرسة الكلام الإمامية ببغداد، كذلك هاجر محدّثون وفقهاء من الكوفة إلى بغداد، فأسهموا ببناء وتنمية مدرسة أهل البيت(عليهم السلام) فيها. وانتقل المحدّث الغزير الرواية إبراهيم بن هشام الكوفي المعروف بالقمّي إلى قم، فكان «أوّل من نشر حديث الكوفيين بقم» بحسب تعبير النجاشي، وهو تلميذ يونس بن عبدالرحمن، والأخير من أصحاب الإمام الرضا(عليه السلام). وكان سبقه بالهجرة إلى قم عبدالله والأحوص ابنا سعد بن مالك الأشعري مع بعض أفراد قبيلتهم سنة ٧٣هـ وبمرور الزمان التحق ما بقي من هذه القبيلة من الكوفة إلى قم، فاستغرقت هجرتهم عشر سنوات، انتهت سنة ٨٣هـ والمعروف أنّ لهم دوراً هاماً في تمصير مدينة قم، واتخاذها قاعدة للتشيّع وعلوم أهل البيت(عليهم السلام)، منذ ذلك الحين.

كذلك فاض العلم من الكوفة، فعاد على مكة عبر رهط من أهل العلم، كان منهم أحمد بن علي بن محمد العلوي العقيقي، الذي «كان مقيماً بمكة، وسمع أصحابنا الكوفيين وأكثر منهم».

وقبل ذلك غادر بعض أهل العلم الكوفة إلى البصرة، فعملوا على نشر العلوم فيها، ومن هؤلاء إبان بن عثمان الأحمر البجلي مولاهم الكوفي، الذي كان يسكن الكوفة تارة «والبصرة تارة، وقد أخذ عنه أهلها: أبو عبيدة معمر بن المُثنى، وأبو عبدالله محمد بن سلام، وأكثروا الحكاية عنه في أخبار الشعراء والنسب والأيام». وحكم بن هشام بن الحكم مولى كنده، الذي «سكن البصرة، وكان مشهوراً بالكلام كلّم الناس. وحُكي عنه مجالس كثيرة». وعلي بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم بن يحيى التمّار الكوفي، الذي «سكن البصرة، وكان من وجوه المتكلمين من أصحابنا، كلّمَ أبا الهُذيل والنظام» وغيرهم.

وفي حقبة لاحقة نجد إبراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي الكوفي المتوفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين، ينتقل إلى أصفهان، مع ما كانت عليه هذه المدينة من موقف مناوئ لمدرسة أهل البيت(عليهم السلام) بهدف بث أحاديث المناقب والمثالب بين أهلها، فقد حكى النجاشيّ أن «سبب خروجه من الكوفة، أنه عمل كتاب المعرفة، وفيه المناقب المشهورة والمثالب، فاستعظمه الكوفيون، وأشاروا عليه، بأن يتركه ولا يخرجه، فقال: أي البلاد أبعد من الشيعة؟ فقالوا: أصفهان، فحلف، لا أروي هذا الكتاب إلاّ بها، فانتقل إليها، ورواه بها، ثقة منه بصحة ما رواه فيه».

وظلت الكوفة تغذي مراكز العلم في بقية الأمصار قروناً متوالية، ولم تتوقف الحركة العلمية فيها تماماً إلى القرن الثامن الهجري، غير أنّها فقدت الكثير من وهجها وحيويتها منذ القرن الرابع الهجري، فقد وردت إشارات تؤكّد تواصل مجالس الدرس الشرعي في فترة متأخرة، يقول الشريف عمر بن إبراهيم بن محمد المنتهي بنسبه إلى زيد الشهيد، أبو البركات الكوفي، المتوفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة: «دخل أبو عبدالله الصوري الكوفة، فكتب بها عن أربعمائة شيخ، وقدم علينا هبة الله بن المبارك السقطي، فافدته عن سبعين شيخاً من الكوفيين، وما بالكوفة اليوم أحد يروي الحديث غيري». وبعد هذا التاريخ نجد الشريف عزالدين أبو المكارم حمزة بن علي ابن زهرة العلوي، يُحدِّث بالكوفة سنة أربع وسبعين وخمسمائة. وهذا يعني وجود بقايا للحركة العلمية في الكوفة، وإن كانت محدودة.

تقويم عام لمسار مدرسة الكوفة

يمكننا استخلاص عدة نتائج من العرض السابق لنشأة وتطور مدرسة أهل البيت(عليهم السلام) بالكوفة، نتعرّف في ضوئها على الإطار العام لهذه المدرسة، والتقاليد العلمية السائدة فيها، وميراثها العلمي، وما أسهمت به من منجز ثقافي في الحضارة الإسلامية، وما آلت إليه في خاتمة المطاف. وفيما يلي عرض سريع لذلك:

١- نشأت بذرة هذه المدرسة بعد تمصير الكوفة، حينما هبط جماعة من الصحابة الكوفة واتخذوها وطناً لهم، فتشكلت حلقات بسيطة في المسجد لتعليم قراءة القرآن الكريم وتفسيره، ثمّ رواية السُنة الشريفة. وبعد وفود أمير المؤمنين(عليه السلام) الكوفة وإقامته فيها خمس سنوات، كعاصمة للدولة الإسلامية، شهدت مدرسة الكوفة مرحلة جديدة اصطبغت فيها بنمو واتساع، تبدّى في تمام أبعادها. فاصبحت هذه الحقبة هي حقبة إشادة أسس ومرتكزات المدرسة، ورصف البناءات الفوقية على هذه الأسس. وبوسعنا القول: إنّ الجهود العلمية لأمير المؤمنين(عليه السلام) بالكوفة، بما اشتملت عليه من خطب، ومواعظ وحلقات تعليم، وبث الحكمة بين الناس عبر التجوال في الأسواق، والاهتمام الخاص بنخبة من التلاميذ، والتركيز على تاهيلهم تاهيلاً خاصاً، مثل كميل بن زياد، وميثم التمار، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وحجر بن عدي، ورُشَيد الهجري.. وغيرهم. كلّ ذلك ساهم بإرساء

أرضية علمية متينة في هذه الحاضرة الحديثة الإنشاء، أمدّتها بعناصر الحياة، وأمّنت لها شروط النجاح والتواصل مع الزمان، مهما قست الظروف، واضطربت الأحوال. ولهذا استمرت حياة هذه المدرسة قروناً عديدة، فيما انطفا غيرها باكراً.

٢- اتّسمت أنماط الحياة المدنية والثقافية بالكوفة بمظاهر إبداع، ودينامية فاعلة، أتاحت للكوفة أن تعمم أنساق التمدن الخاصة بها خارج حدودها، فطبعت البصرة وبغداد بنموذجها الخاص، فمثلاً صار وضع بناء الأسواق وعقد سقوفها بالأحجار «أنموذجاً وقدوة لسوق بغداد»، وقد صار توطّن «سكان جنوب شبه جزيرة العرب، أهل المدن والقرى، الذين كانوا متمدنين تقريباً، سبباً لتحضير العنصر العربي في الكوفة»، ولذلك «لم تكن البصرة سوى مقتبسة منها». حتى أنّ نمط التمدن الذي ازدانت به حياة أهل الكوفة أثار دهشة الفقيه الشافعي، حين زار مدينة الكوفة للمرة الأولى، وحلّ ضيفاً على الفقيه محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، فلمّا جاء إلى منزل محمد بن الحسن، قال يصف ما رآه من صورة فنية لعمارة المنازل بالكوفة: «فرأيت أبواباً واسعة، ودهاليز منقوشة بالذهب والفضة»، ثمّ قارن ذلك بما عليه الوضع بالحجاز: «فذكرت ضيق أهل الحجاز، وما هم فيه، وقلت: أهل العراق ينقشون بيوتهم بالذهب والفضو وأهل الحجاز ياكلون القديد، ويمصّون النوى».

على أنّ إبداع الكوفة لم يظهر في نمط التمدّن فحسب، بل أسفر بأزهى صورة في الحياة الثقافية ومعطياتها، ففي الخط تميز الخط الكوفي بتجسيده لروح الفن الإسلامي، من هنا أضحى عنصراً أساسياً في الزخرفة والتزويق، وتكلّلت به المصاحف، والمساجد، والأماكن المقدسة.

وانطبعت الحياة الفكرية في الإسلام بمكونات فكرية كوفية، كما في القراءات، والتفسير، والحديث لاسيما في مدرسة أهل البيت(عليهم السلام)، وعلم الكلام، والفقه، وعلوم العربية وآدابها. واستقت من مدرسة الكوفة الحواضر العلمية المعروفة في الحياة الإسلامية آنذاك. وبذلك يصدق ما قاله الباحث معروف من إنّ «المزية الخاصة للمذهب الكوفي هي الإبداع في التصوّر، في كافة الأدوار الثقافية العربية»[1].

٣- اتخذت مدرسة الكوفة من المسجد الجامع في مدينة الكوفة مركزاً علمياً لها، ففي أروقته انعقدت حلقات دراسة وتعليم القراءات، والتفسير، والحديث، والفقه، والكلام، والعربية وآدابها، وفي رحابه جرت المناظرات والحوارات الفكرية المتنوعة في شتى حقول المعارف المتداولة ساعتئذ، ومن على منبره أذيعت البيانات السياسية للتعبئة الحربية، وحرصت الحركات الثورية أيضاً على فرض سيطرتها على المسجد، والإعلان عن برامجها عبر منبره، وكان بسط نفوذها على مسجد الكوفة هو رمز انتصارها وظهورها على رجال السلطة؛ لأنّ المسجد هو المركز العلمي، والتربوي، والسياسي، والعسكري في حياة الأمة. تجدر الإشارة إلى أنّ دور المسجد كمركز للتعليم لم يقتصر على تعليم الكبار فقط بل استوعب المتعلمين من جميع الأعمار، فقد قال خلف الأحمر: «رايت الكميت في مسجد الكوفة يعلّم الصبيان».

وضمّت أروقة المسجد حلقات العلم المتنوعة، فكانت حلقات الشعر تنعقد بجوار حلقات العلوم الشرعية وغيرها، وحرص شعراء مرموقون على إذاعة شعرهم في حلقاته، فقد «قصد الشاعر الناشئ الصغير «٢٧١-٣٦٥هـ» الكوفة، وأملى شعره بجامعها سنة ٣٢٥هـ وحضر المتنبي في صباه مجلسه في مسجد الكوفة، وكتب من إملائه».

٤- ساهمت مجموعة عوامل في تواصل العطاء العلمي لمدرسة الكوفة قروناً عديدة، من أبرزها تجذُّر البُنى التاسيسية التي أشادها أمير المؤمنين(عليه السلام)، وعمّقتها جهود تلامذته ومَن تلاهم، لاسيما النشاط العلمي الواسع الذي قام به الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) وامتد بتلامذته في القرن الثاني الهجري، والحضور المكثف للتشيع بالكوفة منذ تمصيرها سنة ١٧هجرية حتى خرابها في القرن الثامن، فإنّ إقصاء الشيعة من مؤسسة الحكم منحهم فرصة أكبر للتفرغ للعمل العلمي، وتوجيه الحركة الفكرية. وكان لشيوع مناخ نسبي من الحرية الفكرية في بعض أدوار نشاط وفاعلية مدرسة الكوفة تاثير بالغ في استمرار حياتها؛ إذ تعايشت بين جدران مسجد الكوفة أكثر من مدرسة فقهية في وقت واحد، فقد شهد القرن الثاني ازدهاراً علمياً متميزاً في مسار مدرسة أهل البيت ع)، التي بسطت نفوذها على الحياة العلمية با لكوفة، واستقطبت أفواجاً من أهل العلم في داخل الكوفة وخارجها، وبموازاتها نشطت بالكوفة مدارس أخرى، من أبرزها مدرسة الراي التي كان يتزعمها الفقيه المعروف أبو حنيفة، الذي مكث يُعلّم تلامذته ويحدّد معالم مدرسته، ويصوغ أصول مذهبه الفقهي بمسجد

(١) ماسينيون، خطط الكوفة: ص١٣.

الكوفة. وخلَّف تلميذه أبا يوسف ومحمد بن الحسن بعد رحيله بمدرسته في الكوفة. وظلّت الكوفة طوال حياتها تستقطب كبار العلماء، فمنْ لم يتوطن بها، ويتخذ مسجدها مقراً لعمله العلمي، لم يزهد بالإقامة مدة من الزمن في رحاب مدرستها، والتزود من علمائها، مثلما فعل الفقيه الشافعي، الذي رحل من المدينة إلى الكوفة، ومكث فيها فترة مصاحباً لتلميذ أبي حنيفة محمد بن الحسن.

غير أنّ البيئة الفكرية بالكوفة لم تعدم فترات توتر سادتها أجواء إرهاب فكري شديدة، اضطرت بعض العلماء من أتباع أهل البيت(عليهم السلام) للتظاهر بالجنون خشية من عيون السلطة، كما فعل جابر بن يزيد الجعفي، يقول علي عبدالله: «خرج جابر ذات يوم وعلى رأسه قوصرة، حتى مرّ على سكك الكوفة، فجعل الناس يقولون: جُنّ جابر، جُنّ جابر! فلبثنا بعد ذلك أياماً، فإذا كتاب هشام قد جاء بحمله إليه، قال: فسأل عنه الأمير، فشهدوا عنده، أنّه قد اختلط وكتب بذلك إلى هشام، فلم يتعرّض له، ثمّ رجع إلى ما كان من حاله الأوّل». واضطرت هذه الظروف الإمام الصادق(عليه السلام) أن يقول كلاماً في بعض خاصة تلامذته، كيما يصرف عنهم أعين السلطان، مثلما حصل بشأن زرارة بن أعين، وكان الإمام الصادق(عليه السلام) قد أفصح عن بواعث ذلك، في رسالته الشفوية لزرارة، والتي حملها ولده عبدالله بن زرارة، وجاء فيها: «اقرأ منّي على والدك السلام، وقل له: إنّي إنّما أعيبك دفاعاً مني عنك، فإنّ الناس والعدو يسارعون إلى كلّ مَنْ قرّبناه، وحمدنا مكانه، لإدخاله الأذى فيمن نحبه ونقربه، ويرمونه، لمحبتنا له، وقربه ودنوه منّا، ويرون إدخال الأذى عليه، وقتله، ويحمدون كلّ مَنْ عبناه نحن، وأن نعمد أمره، فإنّما أعيبك، لأنّك رجل اشتهرت بنا، ولميلك إلينا، وأنت في ذلك مذموم عند الناس، غير محمود الأثر لمودّتك لنا، وبميلك إلينا، فأحببت أن أعيبك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك، ويكون بذلك منّا دافع شرّهم عنك، يقول الله عزّوجلّ:أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كلّ سفينة [صالحة] غصباً، هذا التنزيل من عند الله صالحة، لا والله، ما عابها إلاّ لكي تسلم من الملك، ولا تعطب على يديه، ولقد كانت صالحة، ليس للعيب منها مساغ، والحمدلله، فافهم المثل يرحمك الله، فإنك والله أحبّ الناس إليَّ، وأحبّ أصحاب أبي حياً وميتاً، فإنك أفضل سفن ذلك البحر القمقام الزاخر..».

٥- اتّسع نطاق العلوم الإسلامية في مدرسة الكوفة، فشملت مضافاً إلى القراءات والتفسير، والحديث، علوماً أخرى، ولد بعضها في فناء هذه المدرسة، فيما نما وتكامل البعض الآخر فيها، وتتمثّل هذه العلوم، في علم النحو، وعلم الكلام، والفقه، وبدايات أصول الفقه، وعلم الكيمياء. وهذا ما تحكيه لنا عناوين المؤلفات الكثيرة التي صنفها أهل العلم بالكوفة، ومع أنّ الأعم الأغلب من هذه المؤلفات لم تصل إلينا بيد أنّ البيليوغرافيين السابقين ضبطوا طائفة واسعة من عناوينها. وتجسد قائمة مؤلفات الكوفيين غزارة الإنتاج الفكري لهذه الحاضرة العلمية العريقة، وتنوّع هذا الإنتاج، وبانتمائه لعلوم عديدة. وليس بوسعنا هنا تدوين قائمة بهذا الإنتاج، لتنوعه وسعته، غير أنّ ذلك لايمنعنا من الإشارة إلى نموذجين منه، لمعرفة شيء من أثر مدرسة أهل البيت(عليهم السلام) بالكوفة، في الإنتاج الفكري للإسلاميين في مرحلة لاحقة. أمّا النموذج الأوّل فهو كتاب «نهج البلاغة» الذي هو حصيلة بعض الخطب، والرسائل، والحِكَم، التي انتقاها الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وكان أمير المؤمنين(عليه السلام) قد ألقى بعض هذه الخطب من على منبر مسجد الكوفة، أو في ضواحيها، عند تعبئة جيشه، استعداداً للحروب، كذلك صدرت رسائله إلى ولاته وعماله على البلدان، من عاصمة دولته الكوفة، وبثّ طائفة كبيرة من حكمه وتعاليمه بين أهل الكوفة، لما لبث فيهم سنوات خلافته. ويعتبر «نهج البلاغة» أخصب أثر يكتنز هدي الوحي وتعاليم القرآن، وأغنى ميراث علمي لمدرسة أهل البيت(عليهم السلام) في الكوفة، فقد توفر هذا الكتاب على «حاجة العالم والمتعلم، وبغية البليغ والزاهد، ويمضي في أثنائه من عجيب الكلام في التوحيد والعدل، وتنزيه الله تعالى من شَبَه الخلق، ما هو بلال كل غُلَّة، وشفاء كل علّة، وجلاء كل شبهة»، حسب تعبير الشريف الرضي.

لقد احتلّ «نهج البلاغة» مكانة سامية في تطور العلوم الإسلامية، فنهلت منه دراسات المتكلمين، والفلاسفة، والمتصوفة، والعرفاء، وأصحاب السير والسلوك، والأخلاقيين، من علماء المذاهب الإسلامية قاطبة، واعتمده علماء البيان، باعتباره أبلغ النصوص في اللغة العربية، وتسابق العلماء لشرحه والتعليق عليه، فتجاوزت شروحه مائة شرح، وقع بعضها فيما يناهز العشرين مجلداً.

وأمّا النموذج الثاني فهو «الأصول الأربعمائة»، وهي طبقاً لقول المحقّق الداماد «أربعمائة مصنَّف لأربعمائة مُصنِّف، من رجال أبي عبدالله الصادق(عليه السلام)، ورجاله من العامة والخاصة

على ما قاله الشيخ المفيد في إرشاده، زهاء أربعة آلاف رجل، وكتبهم ومصنفاتهم كثيرة، إلاّ أنّ ما استقر الأمر على اعتبارها، والتعويل عليها، وتسميتها بالأصول، هذه الأربعمائة». وقد صرّح «الشيخ الطبرسي، والمحقق الحلي، والشهيد، والشيخ الحسين بن عبدالصمد، والمحقق الداماد، وغيرهم من أعلام علماء الأصحاب، بانّ الأصول الأربعمائة ألّفت في عصر الإمام الصادق(عليه السلام)، من أجوبة المسائل التي كان يُسأل عنها، ولم يصرح أحد من الأصحاب بخلاف ما قالوه».

وشكّلت هذه الأصول مادة أساسية لمدونات الحديث الأربعة المشهورة عند الإمامية، والتي جرى تأليفها في القرنين الرابع والخامس، وبقي قسم كبير منها «بالصورة الأوّلية إلى عصر محمد بن إدريس الحلي، وقد استخرج من جملة منها ما جعله مستطرفات، وحصلت جملة منها عند السيد رضي الدين علي بن طاوس، المتوفى سنة ٦٦٤هـ».

ولم تزل مجموعة من الأصول موجودة إلى اليوم، حيث نشر الشيخ حسن المصطفوي، بطهران سنة ١٣٧١هـ هذه المجموعة، تحت عنوان «الأصول الستة عشر»، وربّما تكشف في قادم الأيام أصول اخرى، بعد فهرسة ما لم يفهرس من خزائن المخطوطات.

٦- في ضوء العرض التاريخي السالف لمسار مدرسة الكوفة، يمكن استنتاج عدة أدوار مرت بها هذه المدرسة بمرور الزمان، اتسم كلّ دور منها بطابع خاص. وفيما يلي تعداد سريع لهذه الأدوار:

الدور الأوّل:

ويبدأ هذا الدور بتمصير الكوفة سنة ١٧هـ ويتواصل حتى سنة ٤١هـ بعد استشهاد أمير المؤمنين(عليه السلام)، ولجوء ولده الإمام الحسن(عليه السلام) لإبرام الصلح مع معاوية بن أبي سفيان، ثم مغادرة أهل البيت(عليهم السلام) الكوفة وعودتهم إلى موطنهم المدينة المنورة، وتفريغ مدرسة الكوفة من أساتذتها من أهل البيت(عليهم السلام). ويمثّل هذا الدور المرحلة التاسيسية في مسار مدرسة الكوفة.

الدور الثاني:

ويبدأ بعودة أسرة أمير المؤمنين(عليه السلام) إلى المدينة، وتخلّي الإمام الحسن(عليه السلام) عن الخلافة، وبسط معاوية سلطته على الكوفة، وفرض الولاة الأمويين ما يشبه الأحكام العرفية على الكوفيين، ومطاردتهم الطليعة من تلامذة أمير المؤمنين(عليه السلام)، وحبسهم، والتنكيل بهم، وصلب غير واحد منهم. ويمتدّ هذا الدور إلى المرحلة النهائية من الدولة الأموية، أي بعد مضي الربع الأوّل من القرن الثاني. وقد شهد هذا العهد تراجعاً في نشاط مدرسة أهل البيت(عليهم السلام) بالكوفة، بفعل ما عاشته هذه المدينة من قلق، واضطرابات، وحروب أهلية، فإنّ السنوات الواقعة بين سنة (٤١ إلى ١٢٦هـ)، اتخذت فيها عدة ثورات موالية لأهل البيت(عليهم السلام)، الكوفة منطلقاً لها، وهي ثورة الإمام الحسين(عليه السلام)، وثورة التوابين، وثورة المختار الثقفي، وثورة زيد بن علي(رض)، وحفلت حياة أهل الكوفة بهزات وتموجات سياسية حادة، أُصيبت معها الحركة الفكرية بشيوع مناخ من الإرهاب الفكري، وما يشبه محاكم تفتيش العقائد أحياناً.

الدور الثالث:

ويبدأ هذا الدور بأفول سلطان الأمويين في الكوفة، بعد مضي الربع الأوّل من القرن الثاني، ثم ابتداء قيام دولة بني العباس سنة ١٣٢هـ ومجيء الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) إلى الكوفة في العقد الرابع من هذا القرن، أيام خلافة السفاح، وبقائه سنتين فيها. واستمر هذا الدور إلى أوائل العقد الرابع الهجري، بعد زوال شأن الكوفة، واضمحلال الحياة العلمية فيها. ويمثل هذا الدور عهد ازدهار وتكامل الحركة الفكرية بالكوفة.

الدور الرابع:

ويبدأ هذا الدور منذ أوائل القرن الرابع ويمتد إلى اندثار الكوفة وخرابها في القرن الثامن. وفي هذا الدور استمر مؤشر الحركة الفكرية بالانحدار تدريجياً، بعد نزوح أكثر أهل العلم، وتوطنهم في حواضر علمية أخرى. ويمثل هذا الدور عهد الانحطاط الذي آل إلىٰ انطفاء الحياة العلمية بالكوفة.

٧- كان السماع من الشيخ مباشرة أشهر أساليب التدريس المتداولة بمدرسة الكوفة، تليها طريقة القراءة أو العرض على الشيخ، فيقرأ التلميذ على شيخه كتاب الشيخ أو الكتاب الذي يرويه الشيخ عن شيخه، والأسلوب الآخر هو كتابة الشيخ ما يرويه إلى تلميذه، عندما يكون التلميذ غير حاضر عند أستاذه، فيكتب له شيخه بخطه، أو يأمر بالكتابة إليه، وعادة ما يجيز الشيخ تلميذه مشافهة أو كتابة، الرواية عنه، وقد تكون الإجازة بجميع مروياته أو ما يشتمل عليها كتاب معين للشيخ.

٨- ظلت نفقات التعليم محدودة في مدرسة الكوفة، لأنّ الشيوخ لايتقاضون أجراً على تدريسهم، وكان التلاميذ في الغالب من أصحاب الحرف والمهن، كما ذُكر في ألقابهم، مثل الصيرفي، والجمال، وبياع السايري، وبياع الطاطري (وهما نوعان من المنسوجات) وغير ذلك. غير أنّ ما يصل إلى الأئمة(عليهم السلام) والشيوخ من حقوق مالية شرعية، وهبات من الشيعة، كان يستخدم في تغطية النفقات المحدودة للتعليم.

عبد الجبار الرفاعي

دور شيعة الكوفة في عهدي الإمام الرضا والإمام الجواد(عليهما السلام)

إن لمدينة الكوفة منزلة خاصة في التاريخ الدامي للشيعة، ورغم كل اللوم الموجّه إلى أهل الكوفة[1]، نجدهم أكثر التحاماً بثورات العلويين من شيعة سائر المناطق. وكانوا حتى النصف الأول من القرن الثالث الهجري بمثابة نواة انطلاق الحركات العلوية، وأدوا دور السند المهم لها، وأعدوا لثورات قوية. وقد اجتمع في الكوفة محبو الأئمة من أهل البيت(عليهم السلام) أكثر من أي مكان آخر، وكانوا يشكّلون كثافة سكانية كبيرة، إلى حدّ اعتبرت الكوفة مدينة الشيعة. وكان أهلها شديدي التعلّق بالأئمة بحيث كان من يطلق على الإمام الباقر(عليه السلام) لقب (إمام أهل العراق) ويُعدّ أهل العراق من المأخوذين بالإمام الباقر(عليه السلام)، وكان معظم أصحاب الأئمة من أهل الكوفة، أو من أصل كوفي[2].

ففي عهد الإمام الصادق(عليه السلام) كان كثير من رواة حديثه من أهل الكوفة، وكانت الكوفة من المراكز المهمة لنقل الحديث. والمحدّثون كوفيو المشرب -أي العراقيون الميالون نحو التشيّع- قد رووا معظم أحاديثهم عن أمير المؤمنين علي(عليه السلام) وأصحابه أمثال: معاذ بن جبل، أبو مسعود الأنصاري، عبدالله بن مسعود، عبدالله بن عباس، جابر بن عبدالله الأنصاري، حذيفة بن اليمان.

علاوة على ذلك فإن الكوفة كانت حتى نهاية عهد الخلافة الأموية تشكل مركزاً سياسياً وإدارياً لبلدان شرق الخلافة الأموية أي من آذربيجان إلى خراسان وما وراء النهر ونهر السند. ومن الكوفة كان يتم تأمين المسؤولين الإداريين وجند المعسكرات لتلك المناطق. وعليه فإن معظم المبعوثين إلى تلك المناطق كانوا ممن تربّى في الكوفة. وكان هناك إلى جانب أولئك أفراد وقبائل من شيعة الكوفة منفية أو هاربة بعد تسلّط زياد بن أبيه على الكوفة، وانتهاء ثورات المختار وعبدالرحمن بن الأشعث وزيد بن علي. فكانوا يحدثون بحديث أهل البيت(عليهم السلام)، وساهموا إلى حد كبير في نشر التشيّع في تلك المناطق. من هنا فإنّ انتشار الفكر الشيعي في إيران وحتى ما وراء النهر ونهر السند مدين لجهود شيعة الكوفة.

ليس هناك شك في أن شيعة الكوفة كانوا يستفيدون من توجيهات الأئمة وإرشاداتهم خلال تحركهم ذاك، رغم أن الأئمة لم يكونوا يظهرون اهتمامهم بثورات الكوفة بعد استشهاد الإمام الحسين(عليه السلام)، لكنهم كانوا على اتصال بخواص مريديهم، وكان لديهم ممثلون يعملون على تنسيق نشاطات أتباع أهل البيت(عليهم السلام)، وكان لكل من أولئك الممثلين أهميته الخاصة في مركزه. وكان من تلك الوجوه البارزة لشيعة الكوفة في عهد إمامة الإمامين الرضا والجواد(عليهما السلام): صفوان بن يحيى الذي عاش حتى عام (٢١٠هـ).

صفوان بن يحيى

كان من موالي قبيلة بجيلة، وكنيته أبو محمد، وكان يبيع الأقمشة. وتلميذاً لعبدالرحمن بن الحجاج البجلي بائع الأقمشة، الذي كان ممثلاً للإمام الصادق(عليه السلام). وكان صفوان يعدّ من

---

(١) يقول حسن الأمين: من الظلم ما يوجه إلى أهل الكوفة من (اللوم). وإذا كان الكاتب قد تلطف فاقتصر على (اللوم) فإن غيره يقذعون في أوصافهم للكوفيين. والحقيقة أن الأقدار كانت أقوى من الكوفيين، والأقدار لا تغالب. وليس المجال هنا مجال تفصيل.

(٢) إن أول المجتمعات العلمية وأول جماعة من العلماء الشيعة ظهرت في مدينة الكوفة. إن هذه الظاهرة بدأت عندما كانت الكوفة أول مدينة أقام فيها الشيعة بصورة واسعة. إن كبار المتكلمين الشيعة في القرن الثاني الهجري أمثال أبو جعفر محمد بن علي بن النعمان البجلي المعروف بـ مؤمن الطاق وأبو محمد هشام بن الحكم الشيباني وأبو الحكم هشام بن سالم الجواليقي وأبو الحسن علي بن ميثم التمار قد ترعرعوا في مدينة الكوفة وفي القرن نفسه نهض من هذه المدينة أو عاش فيها فقهاء ومحدثون من الطراز الأول أمثال زرارة بن أعين وأيوب بن نوح بن درّاج النخعي وحسن بن علي الوشا وحسن بن محبوب السرّاد البجلي وإبراهيم بن هاشم وأحمد بن محمد بن أبي نصر البيزنطي وأحمد بن محمد بن خالد البرقي وأحمد بن محمد المعروف بـ ابن عُقدة. وقد اشتهر في قراءة القرآن والتفسير في هذا العهد في هذه المدينة كلّ من أبان بن تغلب الجريري وزرارة بن أعين وسليمان بن خالد وعبدالله بن أبي يعفور.

وفي التاريخ والسيرة والأنساب اشتهر كل من إبان بن عثمان البجلي ولوط بن يحيى المعروف بـ(أبو مخنف) ونصر بن مزاحم المنقري وإبراهيم بن محمد الثقفي وهشام بن محمد بن السائب الكلبي وهم من أشهر علماء التاريخ والأنساب في العصر الأول وقد نهضوا من الكوفة أمّا أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الفيلسوف العربي الكبير الذي يعتبر أول فيلسوف إسلامي وجابر بن حيان من أكبر علماء الكيمياء في جميع العصور الإسلامية فقد نهضا من هذه المدينة أو عاشوا فيها.

وبهذا فإن أول مراحل نمو التشيّع والعلوم والثقافة والمعارف الشيعية كان في مدينة الكوفة ومن المحتمل جداً أن أول مدينة تأثرت بنفوذ الشيعة الناهضة من الكوفة هي مدينة قم وأن العلماء والمجتمعات العلمية التي ازدادت وازدهرت فيما بعد في مدينة قم مدينة لمدينة الكوفة.

إن المدن التي تأثرت بالشيعة فيما بعد هي أولاً مدينة الري وبعدها مدينة بغداد ومن بين العلماء الذين اءت أسماؤهم في أمهات كتب الرجال القدماء فإن أكثر

...

الأعداد خاصة بعلماء مدينة الكوفة أمّا البصريون فهم أقل من ٦/١ من الكوفيين وعلماء مدينة قم حوالي ٤/١ وأخيراً العلماء الشيعة في بغداد ١٢/١ من الكوفيين. ففي مثل هذه المصادر والمآخذ نواجه مثل العبارات «أصله الكوفة وسكن بغداد» و«كوفي صيرفي انتقل إلى قم وسكنها» و«إنه أول من نشر حديث الكوفيين بقم» و«كوفي مات بقم» و«الكوفي ساكن الري» وأمثال ذلك. إذاً فإن بغداد والكرخ مدينتان في تكوين المحيط العلمي فيا لمرحلة الأولى إلى الكوفة في الم راحل التالية يأتي دور قم والري، فالصدوق وابن قولويه من مدينة قم والكليني من مدينة الري وهشام بن الحم والكندي ويحتمل جابر بن حيان توجهوا من الكوفة إلى بغداد.

الأصحاب والفقهاء الكبار في عهد الإمام موسى بن جعفر الكاظم(عليه السلام)، وممثلاً للإمام الرضا والإمام الجواد(عليهما السلام) في مدينة الكوفة، وقد احتل مرتبة خاصة في الزهد والعمل، موثوقاً عند الأئمة(عليهم السلام).

وقد ترك كتباً كثيرة في الآداب والتجارات، الشراء والبيع. وقد وضعه لإرشاد التجار الشيعة، حيث كان الشيعة يمارسون دوراً فعالاً في الأسواق، وخاصة في سوق الكوفة، التي كانت مزدهرة اقتصادياً لوقوعها عند طريق التجارة بين إيران والشام والجزيرة العربية وميناء البصرة، وكانوا يتولون حِرَفاً هامة مثل: الصرافة والتجارة وتأجير وسائط النقل (الجمال والبغال والحمير) مما يشكل همزة وصل لهم مع سائر البلدان الإسلامية.

وكان سوق الكوفة متخصصاً، فكان كل أصحاب حرفة ينفردون بمكان خاص بهم، وكان للكسبة والتجار تنظيم خاص بهم. ولعل أصحاب الأئمة كانوا يسعون من خلال ذلك التنظيم إلى اكتساب الأشخاص بسبب ظروف التعسف التي كانت تحيط بهم، وهذا ما دلت عليه شخصيات رؤساء المهن ومراحل الدخول إليها وكيفية ذلك. من هنا كان للسوق أهمية خاصة في نشاط الشيعة والجماعات المعارضة للحكم، وكان الخلفاء العباسيون يدسّون جواسيسهم في الأسواق لمراقبة معارضيهم. على أننا لم نحصل على معلومات وافية عن نشاط صفوان بن يحيىٰ في الاتحادات المهنية في الكوفة، ونأمل أن يبذل المحققون في هذا المجال جهداً أكبر.

ماضي النشاط السياسي لصفوان بن يحيى:

كان (صفوان) يعيش في الكوفة إبان عهد الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام)، وكان له شأن واحترام خاص بين الشيعة، ذلك أن زعماء فرقة (الواقفة) حاولوا استمالته لكنه رفض ونجىٰ بنفسه من الغوص في وحول الواقفة وهذه الفرقة (الواقفة) قامت بعد وفاة الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام)، وشغلت مدة من الزمن شيعة كل من الكوفة وبغداد ومصر. وكانوا يمتلكون في الكوفة قدرة أكبر، وقد طال عمرهم في الكوفة لوجود أرضية مناسبة للانحراف. وكانوا يبرزون كل فترة من خلال وجوه وعناوين مختلفة مما سبب القلق للأئمة وللشيعة. وقد نشأت مثل هذه الانحرافات بسبب وجود جو من الضغط وظروف صعبة، والسرية بين الشيعة؛ مما جعل الاتصال بين الشيعة أنفسهم، وبينهم وبين قيادتهم بطيئاً. وأضعف من إشراف القيادة على الذين كانوا يتولون المسؤوليات بينهم.

في هذا الوضع انطلق بعض المنحرفين لاقتناص الفرصة مستفيدين من موجة الغلو الاجتماعي والسياسي التي كانت تلف المجتمع الإسلامي، والتي أدت في حينها إلى بروز اضطرابات قوية (السنبادية عام ١٣٧هـ/ والراوندية عام ١٤٢هـ/ والأستاذسيسية عام ١٥٠هـ/ والمقنعية عام ١٥٩هـ إلى عام ١٦١هـ).

وقد خبت نار فتنة الواقفة في بغداد وبعض المدن الأخرى إثر التحرك الذي قام به الأوفياء من أصحاب الإمام الرضا(عليه السلام)، وبصمود (يونس بن عبدالرحمن). لكن الواقفة استمرت في الكوفة، وأدت إلى انحراف الكثيرين، وبثوا الكثير من الإشكالات على الإمام الرضا(عليه السلام). حتى قام الأوفياء من شيعة الإمام بملاحقة واقفة الكوفة وعلى رأسهم (علي بن أبي حمزة البطائني) رئيس واقفة الكوفة و(سماعة بن مهران) و(حسين بن أبي سعيد المكاري) الذين كانوا يصرون على التمسك بعقيدتهم المنحرفة، ففروا إلى بغداد، ثم اندثر ذكرهم بعد مدة.

وصفوان الذي بقي مندوباً للإمام الرضا وللإمام الجواد(عليهما السلام) لمدة ثلاثة عقود في الكوفة تخلص من المشاكل والحوادث المختلفة، وقاد شيعة الكوفة بسلامة، مدعوماً من شخصيات خيّرة مثل: محمد بن سنان، وعلي بن النعمان صديقه الحميم، وأيوب بن نوح، وجعفر بن أحمد بن أيوب، وحسن بن موسى، ومحمد بن الحسين بن أبي الخطاب. وفي الختام سلّم هذا الرجل العظيم والتقي الزاهد ثقل الأمانة إلى (محمد بن سنان) بعد أن قضى سنوات مضنية، فتوفي عام(٢١٠هـ) وذكره الإمام بخير عدة مرات، وكان يكرر أنه لم يخالف قولي وقول أبي.

محمد بن سنان:

هو محمد بن الحسن بن سنان من قبيلة زاهر وموالي عمرو بن الحمق الخزاعي، وكان يكنى بأبي جعفر. فقد والده في طفولته، وعاش في كنف جدّه (سنان) فحمل اسمه، بدأت حياته السياسية في عهد الإمام الصادق(عليه السلام)، وتردد اسمه بين من حضر مجلسه، مما يدل على ثقة الإمام به، وعلى منزلته لدى الإمام. لكن زمان دخوله في حلقة أصحاب الإمام ورواته غير معروف، لكن اقتران اسمه عند ذكر روايات المفضل بن عمر ويونس بن يعقوب اللذين كانا من المعتمدين، ونوع الرواية التي نقلها عن المفضل، يزيد من احتمال كونه أحد أعضاء مجموعة المفضل. وأنه ترعرع سياسياً ضمن تلك المجموعة. وكان في خضم أحداث المواجهات العقائدية والسياسية الداخلية للشيعة، حيث يروي أحداثها عن (يونس بن يعقوب) فيتحدث في روايته تلك عن اضطرابات فئة (المؤلفة) التي ظهرت في عهد الإمام الصادق(عليه السلام).

بعد وفاة الإمام الصادق(عليه السلام) عام (١٤٨هـ) كان ابن سنان ضمن أتباع الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام)، فادى دوراً أكثر أهمية في هذه المرحلة في أحداث الكوفة. فقبل عام من

استدعاء الإمام إلى بغداد (١٧٩هـ) حذره الإمام من ظهور معارضة لإمامة الإمام الرضا(عليه السلام)، فاقسم محمد في حضرته أنه مهما طال عمره فإنه يسلمه حقه ويقرّ بإمامته.

ورغم أن راوي هذا الأمر هو (محمد بن سنان) بنفسه، وليس هناك ما يؤيد كلامه هذا، لكن هذا الكلام عدّ من سلامة عقيدته وحسن فكره، ويشير إلى أنه كان مكلفاً بمهمة ما من قبل الإمام، وله اعتباره عند شيعة الكوفة. لذا نرى أن محمداً لم يتزلزل في الفتن التي انطلقت مع إمامة الإمام الرضا(عليه السلام)، بل كان في سلامة من عقيدته، وسار مؤتمراً بإمامة الإمام الرضا(عليه السلام)، والتقى به عدة مرات، وروى عنه.

إن روايات (ابن سنان) لاتولي أحداث الوضع الداخلي لأتباع الإمام في الكوفة أهمية، بل تظهر الخلافات التي دارت بينه وصفوان وأصدقائه: أيوب بن نوح، والفضل بن شاذان. فيصفه صفوان على أنه (الطائر) ويؤكد أن محمد بن سنان كان يحاول التحليق عدة مرات، لكننا قصصنا أجنحته، فبقي إلى جانبنا. ويقول أيضاً: كان محمد بن سنان من المحلقين فقصصنا جناحيه.

وروى أيوب بن نوح بدوره عن محمد بن سنان، لكنه أخذ جانب الحيطة في شرح أحاديث محمد ونشرها، وكان يقول: لاأستسيغ رواية أحاديث ابن سنان.

وآخرهم كان الفضل بن شاذان الذي استعمل لهجة أشد، فقال لأحد أصحابه: مادمت حياً فلا ترو أحاديث محمد بن سنان عني. كما أنه أطلق عليه عبارة (الكذاب المشهور) في بعض كتبه.

هذا هو الحد الذي نقلته لنا الروايات عن الخلافات الداخلية، ولم تدعنا نمخر عباب الأحداث الداخلية لهذه المجموعة، فبقيت أسئلة كثيرة دون جواب، كما أن أسباب ذلك لم يوضح في التاريخ، ولم ينقل عن ذلك سوى رواية واحدة عن الإمام الرضا(عليه السلام) تشير إلى صراع بينهم، ولعلها تتحدث عن نفس من ذكرناه. ورغم عدم ثبوت أن كلامه(عليه السلام) كان في نفس تلك الفترة الزمنية، أو كان يتناول نفس الشخصيات المذكورة، لكن بما أنه يتحدث عن صراع على قيادة شيعة الكوفة، ولم يحدثنا التاريخ عن مثل هذا الصراع في تلك الفترة إلاّ ما جرى بين صفوان وابن سنان، لذا يمكن الاستنتاج أن كلام الإمام كان في نفس الموضوع، وأن المسألة كانت مهمة إلى الدرجة التي دفعت الإمام إلى اتخاذ موقف منها. حيث روي عنه قوله «ما ذئبان ضاريان في غنم قد تفرّق رعاؤها باضر في دين المسلم من طلب الرياسة» ثم ذيل كلامه هذا بقوله «ولكن صفوان لا يحبّ الرياسة».

يبدو أن هذا الصراع قد خمد أواره بعد تدخل الإمام، فبعده توجه محمد بن سنان برفقة صفوان إلى مكة، والتقيا بالإمام (١٩٦هـ) وتوجها منها إلى المدينة لرؤية الإمام الجواد(عليه السلام)، وكان حينها طفلاً لايتجاوز عمره ثمانية عشر شهراً، وكانا ينتقلان معاً في الكوفة. ويبدو أن (أيوب بن نوح) و(الفضل بن شاذان) حضرا مجلسه بعد حل المشكلة، ونقلا عن أحاديثه.

والملفت أن ابن سنان لم يتحدث باي حديث رداً على أولئك وما قالوه عنه، بل استمر بنشاطه بهدوء، فبقي سالم العقيدة إبان إمامة الإمام الرضا(عليه السلام)، وكان من أصحاب الإمام الجواد(عليه السلام)، وكانت له منزلة خاصة، حتى أن الإمام الجواد(عليه السلام) عبّر عن رضاه عنه. ويبدو أنه كان مندوباً للإمام الجواد(عليه السلام) في الكوفة إلى جانب صفوان بن يحيى، لكنه كان يمثل الشخصية الثانية بعد صفوان في حياته، وكان صفوان هو الذي يتولى قيادة شيعة الكوفة. وقد خاطب (سنان) عند دخوله مع صفوان إلى مسجد الكوفة بما مؤداه: من أراد أن يسأل عن مسائل معقدة فليأتني، ومن أراد أن يسأل عن الحلال والحرام فليذهب إلى الشيخ –صفوان–.

كلام ابن سنان هذا يحدد بطريقة مهذبة حدود مهمته، ويبرز مسؤولية صفوان بوضوح، ويبين قبوله لقيادة صفوان، المكلّف بتبيان مسائل الحلال والحرام، فيقدمه بذلك على نفسه، ويبين اختصاصه. من هنا يتبين لنا شكل القيادة وتركيبتها في الكوفة حتى وفاة صفوان، وبعد وفاته أضحى ابن سنان رئيساً للشيعة في الكوفة. ومع أن أحداً لم يحدثنا عن تولي محمد بن سنان لهذا المنصب سوى الشيخ الطوسي، لكن عدم تعيين الإمام الجواد(عليه السلام) مندوباً عنه بعد صفوان رغم وجود أيوب بن نوح المؤهل لهذا المنصب يدل على ذلك. حتى إذا توفي ابن سنان تولى أيوب المسؤولية تلك، وذلك في عهد إمامة الإمام الهادي(عليه السلام).

فبعد وفاة ابن سنان (٢٢٠هـ) جعل الإمام أيوباً في منزلة الوكلاء والشخصيات الكبيرة من أمثال: صفوان بن يحيى، وزكريا بن آدم، وسعد بن سعد. الذين كانوا قد توفوا، ومدحه. ووجه (عليه السلام) كلاماً ينفي فيه كل التهم التي كانت وجهت إلى ابن سنان، وذلك بعد موته، مؤكداً أنه لم يخالف قولي وقول أبي. إضافة إلى تكليف الإمام الجواد(عليه السلام) له بإبلاغ رسالته إلى شيعة البصرة، وهو أمر مهم أيضاً.

كما روى عنه كل من: حسن وحسين بن سعيد الأهوازي، ومحمد بن الحسين بن أبي الخطاب، والفضل بن شاذان، أمّا (علي بن إبراهيم) فقد أدرج روايات محمد بن سنان في تفسيره، واعتبره من الثقات.

من هذا كله يتبين سبب تكليف الإمام ابن سنان بتمثيله، وثقة الإمام والشيعة به. ويدل على بطلان ما ورد بحقه من تهم وافتراءات.

أخيراً توفي محمد بن سنان عام (٢٢٠هـ) قبل وفاة الإمام الجواد(عليه السلام).

من بين شيعة الكوفة كانت هناك شخصيات بارزة أخرى غير صفوان بن يحيى ومحمد بن سنان. ترددت أسماؤهم من خلال الروايات المنقولة عن ابن سنان وصفوان، ممن صحبوهما وتولوا مسؤوليات متعددة في مجال إدارة وتنظيم شيعة الكوفة، وكانوا يشكلون مركزية -إلى جانب صفوان بن سنان- ناجحة ومتجانسة. لكن بما أن باقي الشخصيات لم تكن منصوبة من قبل الإمام الرضا والجواد(عليهما السلام) مباشرة، لذا يحتمل أنها كانت تتولى مسؤوليات من الدرجة الثانية وأدنى من ذينك الرجلين، ويعملون تحت إشرافهما. من أولئك الأشخاص: حسين بن سعيد الأهوازي، وأيوب بن نوح بن دراج -قاضي الكوفة- والفضل بن شاذان النيسابوري. وكانت لهم منزلة خاصة بارزة.

أيوب بن نوح عيّن من قبل الإمامين الهادي والعسكري(عليهما السلام) وكيلاً عنهما في الكوفة.

أمّا باقي الشخصيات التي برزت ونشطت وتوفيت خلال عهد الإمام الجواد(عليه السلام)، وفي بداية عهد الإمام الهادي(عليه السلام)، وتلك التي خبا نشاطها بعد وفاة الإمام الجواد(عليه السلام) فكانت:

١- جعفر بن بشير:

عاش في الكوفة، وكان من موالي قبيلة بجيلة، وكان تاجر أقمشة حرير. كان جعفر من أصحاب الإمام الرضا(عليه السلام)، وروى عنه، وكان كلامه ثقة، وله منزلة رفيعة عند الشيعة. روى عنه أشخاص بارزون من أمثال: صفوان بن يحيى، ومحمد بن خالد البرقي. ومحمد بن حسين بن أبي الخطاب بائع الزيت الشيعي المشهور كان يحضر عند جعفر ويستفيد من رواياته.

كانت هناك علاقة بين جعفر بن بشير، وصفوان بن يحيى الذي كان تاجراً أيضاً، وابن أبي الخطاب بائع الزيت. وقد وضعوا كتباً في فقه التجارة والكسب منها: كتاب المكاسب، وكتاب الصيد، وكتاب الذبائح. وهذا يدل على نشاطهم في مجال تجارتهم وسعيهم لتنظيم هذه المهن. لكن التاريخ لم يحدثنا عن كيفية نشاطهم داخل تلك النقابات والتجمعات في الكوفة.

يبدو أن (جعفر بن بشير) كان من شيعة الكوفة الناشطين علناً، وكان يستخدم المسجد لتوسيع نشاطه هذا. وكان مسجده في منطقة بجيلة قرب النجف، وكان يصلي فيه. وكان عامراً حتى النصف الأول من القرن الخامس الهجري. وقد لقي الكثير من الأذى والمطاردة بسبب نشاطه ذاك، خاصة خلال سنوات الاضطراب في العراق خلال الأعوام (١٩٥-٢٠٣هـ) وبعد وفاة الإمام الرضا(عليه السلام)، وعودة المأمون إلى بغداد، أرسل يطلبه، مما يدل على أهمية جعفر بن بشير في الكوفة.

أخيراً وبعد سنوات من العناء والجهد فارق جعفر بن بشير الحياة عند مسيره إلى مكة في (الأبواء) ولم يتمكن من لقاء الإمام الجواد(عليه السلام).

٢- الحسن بن محبوب:

الحسن بن محبوب بن وهب بن جعفر بن وهب، من موالي قبيلة بجيلة. جده الأكبر (وهب) كان من أهل السند، ومن موالي (جرير بن عبدالله البجلي) وكان يعمل في إعداد أدوات المقاتلين،ويبدو أن هذا الأمر كان سبباً لمحاولة أمير المؤمنين(عليه السلام) شراءه من (جرير) لكن جريراً لم يكن يرغب ببيعه فاعتقه، وعرف بمولى بجيلة. لكنه بعد أن أصبح حراً توجه إلى الإمام، وبقي في خدمته. هذا ما هو معروف عن وهب، وليس هناك أي خبر عن سلالته حتى الحسن بن محبوب. لكن بما أن الحسن هذا كان يحمل لقب صانع العتاد أيضاً، فهذا يعني أن أبناء وهب وأحفاده استمروا في مهنة أبيهم، وعرفوا بنفس اللقب.

(جعفر بن محمد بن الحسن) حفيد الحسن بن محبوب ذكر أن جده الحسن كان قوياً، مما يتناسب مع مهنته. لكن (حسن) لم يكتف بمهنة صنع العتاد العسكري، بل طلب العلم، والتحق بطليعة الشيعة. لكن لم تحدثنا الأخبار عن كيفية وزمان إلتحاقه بالشيعة، لكنه كان في زمان الإمام الكاظم(عليه السلام) من بين الشخصيات الشيعية المعروفة، ومن علماء عهد الإمامين الكاظم والرضا(عليهما السلام)، والتقى بهما، وروى عنهما. وقد اشتهر في العلم إلى درجة أن الشيخ الطوسي اعتبره أحد الأساطين الأربعة في زمانه وترك عدة مؤلفات منها تفسيره المعروف.

بعد وفاة الإمام الرضا(عليه السلام) ابتعد (ابن محبوب) عن الأضواء، ولم يعد يذكر اسمه على الألسنة. وتوفي عام (٢٢٤هـ) لكن لا ينقل عنه روايات للإمامين الجواد والهادي(عليهما السلام). ومع ذلك فإن (النديم) ذكره بين أصحاب الإمام الجواد(عليه السلام). لكن باقي العلماء لم يذكروه. ويستدل من ذلك على أنه لم يوفق للقاء الإمامين الجواد والهادي(عليهما السلام). لكن ذلك لا يعني أنه كان حينها من بين المنحرفين. واتهام البعض له بالانحراف لأنه روى عن (علي بن أبي حمزة البطائني) أمر مرفوض. لأنه كان مرضياً عنه من قبل الإمام الرضا(عليه السلام). ووثقه معظم علماء الرجال.

وإذا لم يوفق (الحسن بن محبوب) للقاء الإمام الجواد(عليه السلام)، فإن ابنه (محمد) كان من أصحاب الإمام، وروى عنه عليه السلام، ويستبعد أن يكون (محمد) رابطاً بين أبيه والإمام، أو أنه لم يكن مسموحاً له بلقاء الإمامين الجواد والهادي(عليهما السلام) بسبب الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة.

٣- أحمد بن محمد بن أبي نصر البيزنطي:

كان جده أبو نصر من مماليك قبيلة (سكون) التي كانت تقطن جنوب مسجد الكوفة. وبعد عتق (أبي نصر) صار من موالي القبيلة، وأحمد من أبناء الموالي في القبيلة، وكان من علماء عهد الإمامين الكاظم والرضا(عليهما السلام)، وكانت له منزلة سامية عند الإمامين الرضا والجواد(عليهما السلام)، ومن ثقات الشيعة. رافق صفوان وعبدالله بن جندب -ممثل الإمام الرضا(عليه السلام) في الأهواز- ومحمد بن سنان في سفرهم للقاء الإمامين الرضا والجواد(عليهما السلام) مما يدل على منزلته السياسية في مجتمع شيعة الكوفة. واستقبل الإمام الرضا(عليه السلام) في القادسية، خلال سفر الإمام إلى (مرو) وتولى مسؤولية بعض تجهيزات قافلة الإمام. هذه المحطات تدل على أنه كان من الناشطين الشيعة في الكوفة، وله دور أساسي في إدارة شؤون شيعتها. لكن في عهد الإمام الجواد(عليه السلام) لم يذكر بمدح. لكن بما أن التركيب الأساسي لمركزية الكوفة لم يتغير حتى وفاة صفوان، وبقي نفس الأشخاص الفاعلين خلال عهد الإمام الرضا(عليه السلام) إلى جانب بعضهم البعض. مما يفترض أنه بقي محتفظاً بمنزلته السامية بين الشيعة. وبقي على عقيدته خلال عهد الإمام الجواد(عليه السلام)، وتوفي عام (٢٢١هـ) في أول عام من إمامة الإمام الهادي(عليه السلام).

٤- محمد بن الحسين بن أبي الخطاب:

كان يعيش في الكوفة، ومن ثقات شيعتها، ومن أصحاب الإمام الجواد(عليه السلام). ترك روايات كثيرة، وألّف أكثر من ستة كتب. وكان كسبه من تجارة الزيوت، ومن الشخصيات البارزة بين الشيعة، فطريقه في الرواية يجعله في مستوى زعماء شيعة الكوفة، فهو يروي عن: صفوان بن يحيى، ومحمد بن سنان، ومحمد بن أبي عمير، والحسين بن محبوب، وجعفر بن بشير، وأحمد بن محمد بن أبي نصر البيزنطي. مما يدل على مدى نشاطه وارتباطاته السياسية. ورغم عدم وجود أخبار عن نشاطه السياسي داخل المحيط المهني أو تقلده مسؤولية فيه، لكن لايستبعد أن يكون رابطاً بين الشخصيات الشيعية البارزة في بغداد -محمد بن أبي عمير- والكوفة، ويؤدي دور همزة الوصل بين المندوبين والوكلاء والشخصيات الشيعية البارزة.

عاش ابن أبي الخطاب عمراً مديداً، فبعد تشرفه بصحبة الإمام الجواد(عليه السلام)، أدرك الإمامين علي الهادي والحسن العسكري(عليهما السلام)، ثم توفي عام (٢٦٢هـ).

٥- محمد بن خالد البرقي:

هو أبو عبدالله محمد بن خالد بن عبدالرحمن بن محمد بن علي المعروف بالبرقي، وكان جدّه الأكبر (محمد بن علي) يعيش في الكوفة، وشارك في ثورة زيد بن علي(عليه السلام) عام (١٢٢هـ) وبعد استشهاد (زيد) وتفرّق أصحابه اعتقل (محمد) وأودع السجن لدى حاكم الكوفة آنذاك (يوسف بن عمر) ثم قتل، وبعد مقتله فرّ ابنه عبدالرحمن إلى إيران حاملاً معه ابنه الطفل (خالد) واستقر في منطقة (برق رود) من نواحي قم، وكانت تقطنها قبيلة هي فرع من قبيلة الخزرج وكانوا قد تواردوا إليها بعد فشل ثورة عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث.

بعد ذلك انقطعت أخبار عبدالرحمن وابنه خالد ولا يوجد ما يشير إلى عودتهم إلى العراق. لكن يبدو أن (محمد) بن خالد قد غادر (برق رود) لأنه التقى الإمام موسى الكاظم(عليه السلام)، وظهرت آثاره في بغداد والكوفة، فروى عن محمد بن أبي عمير البغدادي -بائع الأقمشة- وعن محمد بن سنان، وأحمد بن نصر، وجعفر بن بشير العجلي، وصفوان بن يحيى.

بعد وفاة الإمام الكاظم(عليه السلام)، نجا (محمد) من فتنة الواقفة، والتقى الإمام الرضا(عليه السلام)، وروى عنه.

وبعد وفاة الإمام الرضا(عليه السلام) أصبح من أصحاب الإمام الجواد(عليه السلام)، ويبدو أنه فارق الحياة خلال فترة إمامته. ولم يحدد مكان إقامته وزمان وفاته ومحل دفنه بشكل دقيق. لكن لما كانت معظم رواياته عن أعيان الشيعة في الكوفة، يبدو أنه عاش في الكوفة بين الشخصيات الشيعية البارزة.

٦- عبدالرحمن بن أبي نجوان:

اسمه الحقيقي عمر بن مسلم، من موالي قبيلة تميم، عاش في الكوفة، واعتبر من أصحاب الإمام الرضا(عليه السلام)، وكان أبوه من أتباع الإمام الصادق(عليه السلام). وكانت له منزلة خاصة عند شيعة الكوفة. روى عن: صفوان بن يحيى، ومحمد بن سنان، وصفوان بن مهران الجمال، وعبدالله بن بكير، وأبي بصير. وروى عنه: الحسين بن سعيد الأهوازي، وأيوب بن نوح، وإبراهيم بن هاشم، ومحمد بن أبي عمير. ومن مؤلفاته: كتاب البيع والشراء.

الشواهد المذكورة آنفاً تدل على أهميته ومنزلته، ويبدو أنه كان مكلفاً بمسؤولية حساسة جعلته يتخذ اسماً مستعاراً (عبدالرحمن) حيث كانت الأسماء المستعارة تستخدم خلال تنفيذ النشاطات السرية، وفي مواجهة الحكم الجائر، وفي محاربة المنحرفين.

وعدا ما ذكرنا من شخصيات بارزة، هناك شخصيات مهمة أخرى، ومن أتباع الإمام الجواد(عليه السلام) في الكوفة، تشرفوا بلقاء إمامهم مما يدل على منزلتهم. لكن التاريخ أخفى منزلتهم في الكوفة، ولم يحدثنا عن تعاونهم مع صفوان وابن سنان -ممثلي الإمام- أو أنه لم يذكر معلومات وافية عنهم. لهذا لا يمكننا أن نعدهم من الشخصيات الرئيسية. فأوردناهم في ختام بحثنا هذا ومنهم:

١- مروك بن عبيد بن سالم بن أبي حفصة:

وهو صالح بائع اللؤلؤ، عُدّ من أتباع الإمام الجواد(عليه السلام)، وهو من أقارب (نشيط بن صالح) خادم الإمام الكاظم(عليه السلام)، وكان ثقة عند الشيعة، اعتبره بعض الشيعة من الموالي، فذكروا أنه من موالي (عمار بن المبارك العجلي).

لم نجد معلومات كافية عن نشاطه ومحل سكناه، لكنه لما روى عن: إبراهيم بن أبي البلاد، وعلي بن الحسن بن أبي فضال، وأحمد بن نصر، وعبدالرحمن بن أبي حماد -الذين كانوا يقطنون الكوفة- وعن: منصور بن العباس، ويعقوب بن يزيد -اللذين كانا يقطنان بغداد- من هذا يبدو أنه قطن إحدى هاتين المدينتين -الكوفة أو بغداد- أو أنه تولى مهام في إحداهما. أو كونه تاجر لؤلؤ كان يتردد على هاتين المدينتين. لكن ليس هناك ذكر لسبب استخدامه اسماً مستعاراً، أو لدوره في نادي بائعي اللؤلؤ.

٢- موسى بن عمر بن بزيع:

صحب الإمام الجواد ثم الإمام الهادي(عليهما السلام)، ومن ثقات الشيعة، وهو من موالي المنصور الخليفة العباسي، وابن عم محمد بن إسماعيل بن بزيع.

٣- أحمد بن عبدالله الكوفي:

وكان من أصحاب الإمام الجواد(عليه السلام).

٤- أبو سكينة الكوفي:

وكان من أصحاب الإمام الجواد(عليه السلام).

عبد الهادي الأحمدي

جامعة الكوفة

تطورت مدينة الكوفة وازدهرت منذ خلافة الإمام علي(عليه السلام) وأصبحت مركزاً حضارياً مهماً. والتقت فيها مختلف العلوم والآداب، فنبغ فيها علماء كبار.

وقد احتل فقهاء الشيعة في الكوفة مركز الصدارة في القراءة والبحث والتدريس.

غير أن أهميتها الدينية والحضارية أخذت تتضاءل بالتدريج خصوصاً بعد تطور مدينة النجف واتساع أهميتها وتحولها إلى مركز للتشيع. كما أن الحكومات المتعاقبة في العراق لم تولها أية أهمية وتجاهلت دورها الريادي وتاريخها الحضاري الذي أغنى الفكر العربي - الإسلامي بعلوم اللغة والأدب والتاريخ والفلسفة والفن، ولم تبذل أي جهود جادة لإعادة إعمارها وتنميتها وإعادة الاعتبار لها كمركز حضاري عريق.

غير أن مجموعة من العلماء والمفكرين العراقيين قاموا بمحاولة جادة لإعادة إعمارها وإحياء دورها الريادي، العلمي والثقافي، في منتصف الستينات من القرن العشرين. وكانت الخطوة الأولى تشكيل هيئة تحضيرية من عدد من العلماء والمفكرين لتاسيس (جامعة الكوفة).

وقد جمعت لهذا الغرض أموال كثيرة من المتبرعين كانت تكفي لإقامة جامعة ومركز علمي يرفدان العراق والعالم العربي والإسلامي بينبوع من العلم والثقافة لإعادة الكوفة إلى عصرها الذهبي وجعلها مركزاً علمياً عمرانياً وحضارياً مرموقاً يلتقي فيه الدين مع العلم ليلكمل كل منهما الآخر. وقد انطلقت الفكرة من أن الإسلام ليس دين عبادة فحسب، بل دين حضارة وتقدم وإشعاع وتمدّن، ولم يأخذ المكانة التي يستحق بالرغم من مضيّ أربعة عشر قرناً من الزمان. «لذا يكون من الضروري إحداث عصر تنوير جديد لعالمنا، باعتبارنا جزءً من هذا العالم وجزءً من هذا الكوكب، وعلينا ألا نكون منعزلين، وأن نخرج من وضعنا الحالي، ولكن ليس عن طريق التبشير، وإنما عن طريق العمل والتصور العقلي - العملي. وإذا كان لنا تصوّر عملي واضح فسوف يقبلنا العالم ويحترمنا، لأن معطياتنا لاتأتي إلاّ من احترام الآخرين لنا».

لقد كان المشروع حدثاً تاريخياً مهماً في حينه لتاسيس عمران حضاري ينعيش جنوب ووسط العراق، ذلك المشروع الذي كان من أهدافه وقف نزيف الهجرة الريفية المستمرة من الجنوب إلى بغداد والمدن الكبرى.

أمّا الهدف الرئيسي من إعادة إعمار الكوفة وإنعاشها من جديد، وهو ما جعلها وريثة الحضارات الكبرى، الاكديّة والبابلية والإسلامية، فهو إعادة كوفة اللغة والأدب والنحو والخط والبلاغة، وربطها بعلاقة وثيقة بالنجف الأشرف، مثلما قال الدكتور محمد مكية، أحد مؤسسي المشروع «من أجل ربط العلم بالدين، كبداية لحضارة عربية - إسلامية جديدة وغنية ومتفتحة.

لقد استمر التحضير لهذا المشروع أكثر من سنتين قام المؤسسون خلالها بعلاقات جدية مع مؤسسات علمية وحضارية، عالمية ومحلية، كان هدفها تأسيس «استشراق معكوس» يدرس الشرق والإسلام في بلد شرقي مسلم، وهو تمثيل لوعي جديد وميثاق لمجتمع عراقي جديد، بخصوصيته المحلية. وقد حصل المشروع على موافقة مجلس الوزراء عام ١٩٦٧، بسبب أن المشروع العمراني لم يكن ذا طابع سياسي أو عنصري أو طائفي، بقدر ما كان رؤية تصورية جديدة لإنعاش وإعمار منطقة مهمة أهملت منذ قرون. لذا كان من جملة الأهداف الحضارية لهذا المشروع زراعة مليون نخلة وحفر آلاف الآبار الإرتوازية وبناء مدينة جامعية بكل ما يرتبط بها من مرافق ومكتبات ومعاهد وأسواق وغيرها من العمران الحضاري.

لقد لاقى المشروع تأييداً وترحيباً كبيرين، وبدل تشجيع الحكومة البعثية التكريتية حكومة صدام ورعايتها لهذا

المشروع العلمي الحضاري، فإنها لجأت إلى منع المشروع ومصادرة جميع الأموال التي تبرع بها المواطنون لإقامته.

بغداد والبصرة والكوفة

يقول حسن الأمين:

لما دُعي إلى مهرجان الشعر العربي في بغداد دعيت إلى المساهمة فيه وألقيت قصيدة آخذ منها هنا ما ورد فيها عن بغداد وعن البصرة وعن الكوفة. وكنت قد قضيت من قبل في بغداد فترة تدريسية ظلت ذكرياتها العذبة عالقة في نفسي.

قلت عن بغداد:

حب يظل على المدى متجددا
وهوى يعود به الوفاء كما بدا
بغداد يا حلم النفوس إذا هفت
شوقاً ويا لحن المحب إذا شدا
الوجد فيك كما عهدت ولم يزل
شوقا الأحبة ما عرفت توقدا
من رافديك كما تبسم دجلة
عبر الضحى وكما الفرات تنهدا
بالحب بالعهد الوثيق وبالوفا
صغنا القلوب مودة والأكبدا
كم كان طيفك للأحبة مسعفاً
إن لج شوقهم وذكرك مسعدا
هذي العروبة في مواكب زحفها
هبت إليك تجمعاً وتحشدا
صوت من الأدب الرفيع يشدهم
ونداء صدق في حماك ترددا
صوت (الرضي) إذا ترنم بالهوى
وإذا استجاش إلى الوغى وإذا حدا
صوت تردده الشعاب وتنتخي
قمم الجبال تحفزاً وتوعدا

وقلت عن البصرة والكوفة:

هذا العراق وما رأيت كمجده
أبقى على مرّ الزمان وأخلدا
سل في البيان العبقري أمثله
من رتّل الآيات فيه وجوّدا
البصرة الفيحاء أبصر ثغرها
في ظلمة التاريخ يلمع فرقدا
وجرير يهتف بالغرام وينثني
صوت الفرزدق بالمفاخر منشدا
كانت على الأيام أسطع كوكب
علماً وازهاه تقى وتعبدا
إني لأسمع في الخيال هتافها
وأرى مواكبها تؤم المربدا
والكوفة الخضراء المح وجهها
عبر الزمان نضارة وتوردا
في كل زاوية تريك حضارة
وبكل ركز ثم تبصر معهدا
رعت البيان فضيلة ومحبة
وحوته حين حوته في الدنيا هدى
يا كوفة الجند استطالت عزة
وشأت طريفاً في الحياة ومتلدا
جددت سالفة المنابر شاعراً
فذّ القريض وناثراً متفردا
من قبتيك ومن منارات العلى
شعت على الكون الهداية فاهتدى
حييت أرضك مهطعاً لجلالها
ولثمت تربك خاشعاً متعبدا
متخيلاً نور (الإمام)، ووجهه
جلّى بمشرقه الضلال وبدّدا
أعلى ميادين الكفاح بطولة
وأنار داجية الظلام تهجدا
أرنو إلى الأطلال علّ بها سناً
من نور غرته وعلّ بها صدى

إنـــي لأســـتوحي الطلـــول فخارهـــا
شـــرف الكتـــاب ومجـــده والـــسؤددا
والألمعيـــون اســـتفاض حـــديثهم
بحـــراً تـــدفق بالمعـــارف مزبـــدا
متحلقـــين علـــى الحقيقـــة مـــا رأوا
فـــي دهـــرهم إلاّ الحقيقـــة مقـــصدا
ذكـــرى (علـــيّ) فـــي رحابـــك غـــضة
وســـبيل نهجـــك لا يـــزال موطّـــدا
لا تتركـــي القـــصد القـــديم فربمـــا
كـــان القـــديم تقـــدماً وتجـــددا

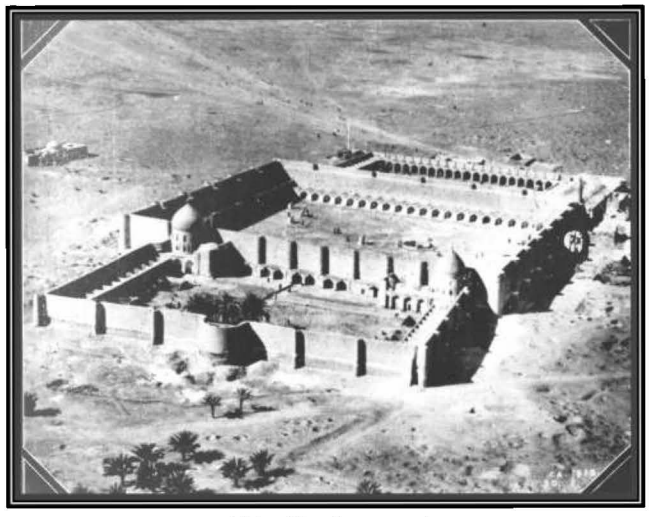

١- مسجد الكوفة ١٩١٥م

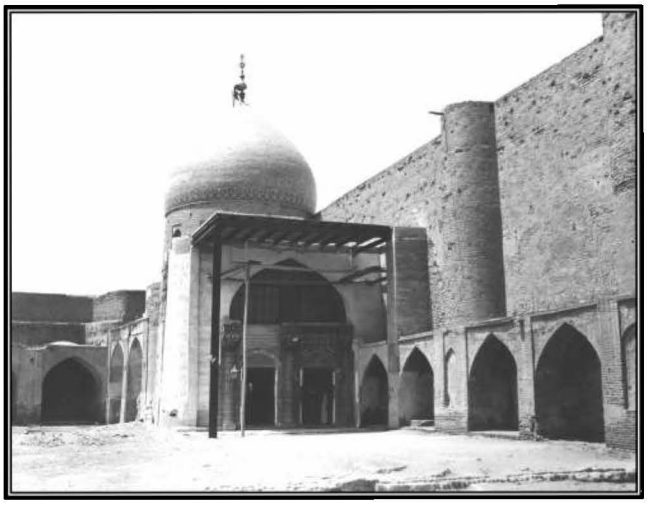

٢- مرقد مسلم بن عقيل ١٩٣٥م

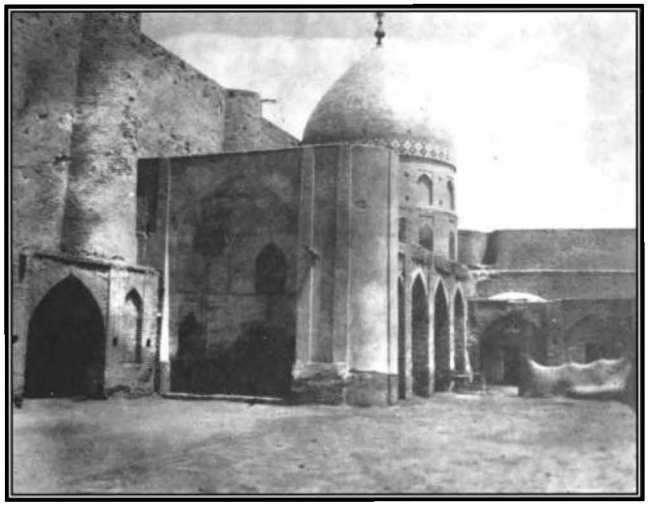

٣- مرقد هاني بن عروة ١٩٣٥م

* * *